الدكتور محمد عمارة

في فقه الصراع على القدس وفلسطين



دار الشروق

في فقه الصراع
على القدس وفلسطين

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى : email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

الدكتور محمد عمارة

في فقه الصراع على القدس وفلسطين

دار الشروق

تقديم

إبان الحرب العالمية الثانية [١٣٥٨ـ١٣٦٤ هـ/ ١٩٣٩ـ١٩٤٥ م] أطلق الاستعمار على الوطن العربى اسم: «الشرق الأوسط» وذلك ليفرّغ هذا الوطن من هويته «العربية ـ الإسلامية» وليصبح مجرد «جغرافيا» قابلة للإلحاق «بالمركز الغربى» . . وليفتح الباب الثقافى لصبغ هذه «الجغرافيا» بالصبغة الثقافية التغريبية التى يريدها الاستعمار! .

وكان لهذه التسمية ـ «الشرق الأوسط» ـ مقصد آخر أكثر إمعانا فى محاولات هذه «المركزية الغربية» إلحاق الآخرين بمركزيتها . . فتسمية «الشرق الأوسط» بعد محوها لهويتنا «العربية ـ الإسلامية» ـ تسمينا باعتبار موقعنا ـ كتابعين ـ من المركز الغربى! . . فهناك من هو «شرق أدنى» ـ بالنسبة لموقعه من المركز الغربى ـ ومن هو «أوسط» . . ومن هو «أقصى» بالنسبة لموقعه من هذا «المركز» . . فكأننا العبيد الذين تتم تسميتهم بحسب موقعهم من «السيد»! .

ولقد ابتلعت كثير من دوائر السياسة والفكر والثقافة والإعلام، فى وطن العروبة وعالم الإسلام ـ بسبب الغفلة والجهالة ـ هذه التسمية التى تكرس معانى التبعية . . ومحو الهوية . . والإلحاق .

فلما حدثت نكبة الاغتصاب «الصليبى ـ الصهيونى» لفلسطين ـ عقب الحرب العالمية الثانية ـ ذاع وشاع التعبير عن هذه القضية باسم: «مشكلة الشرق الأوسط»، وذلك بدلا من اسم: «الصراع العربى ـ الصهيونى» وذلك ـ مرة أخرى ـ لتكريس محو الهوية المميزة لهذا الصراع.

وفى السنوات الأخيرة.. ومع الحديث عن التسويات التى تحاول تكريس النكبة والهزيمة، حسبت الدوائر الصليبية والصهيونية أنها قد اقتربت ـ بهذه التسويات البائسة ـ من كسر الإرادة العربية الإسلامية الرافضة لاغتصاب الصهيونية للقدس وفلسطين.. وأن هذه التسويات توشك أن تمحو هويتنا العربية الإسلامية، حتى تقبل «جغرافيتنا» الكيان الصهيونى.. بل وسيطرته على هذه «الجغرافيا». فبدأ شيوع مصطلح «الشرق الأوسط الجديد».. ثم مصطلح «الشرق الأوسط الكبير»!.

* * *

ومنذ شيوع هذا المصطلح ـ «الشرق الأوسط» ـ كانت هناك محاولات لطمس جذور هذا الصراع الذى يدور على القدس وفلسطين، كرمز للصراع الإمبريالى الغربى ـ التاريخى ـ ضد الشرق الإسلامى.. حتى لقد أصبح الكثيرون يظنون أن تاريخ هذا الصراع قد بدأ مع قيام الكيان الصهيونى فى فلسطين سنة ١٩٤٨م.. أو أن تاريخه لا يعدو «وعد بلفور» سنة ١٩١٧م.. أو أن جذوره لا تتجاوز المؤتمر الصهيونى الأول، الذى عقد فى

«بال» بسويسرا ١٨٩٧م . . كل ذلك لتسطيح القضية . . وإخفاء جذورها العميقة والدفينة . . وقبل كل ذلك، لمحو هوية هذا الصراع التاريخي، وطمس الأبعاد الفكرية والعقدية و«الأيديولوجية» الدينية التي غذته، وتغذت عليه عبر قرون طوال! . . ولتصويره على أنه مجرد «حاجز نفسي» ـ حديث النشأة ـ تزيله وتبدده هذه التسويات! .

وإذا كان القائد العسكري الإنجليزي «جلوب باشا [١٨٩٧ ـ ١٩٨٦ م] . الذي عمل قائدا للجيش العربي الأردني حتى سنة ١٩٥٦ م!! ـ وهو كاتب ومؤرخ ـ قد أصاب كبد الحقيقة عندما كشف عن تاريخ هذا الصراع، بعبارته التي توقظ النيام والغافلين ـ بل والسكارى ـ والتي تقول: «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»! ـ أي إلى تاريخ ظهور الإسلام!! .

فإن هذا الكتاب ـ الذي نقدم بين يديه ـ إنما يكشف ليس فقط عن هذه الجذور التاريخية العميقة والدفينة لهذا الصراع على القدس وفلسطين . . وليكشف ـ أيضا . . وبالدرجة الأولى ـ عن «هوية» هذا الصراع، وذلك حتى تكون «القراءة» للتاريخ سبيلا «للوعي» بهذا التاريخ . . وحتى تستدعي أمتنا «هويتها» العربية الإسلامية في هذا الصراع . . وذلك بدلا من الوقوع في «فخ» نزع سلاح هويتنا، التي مثلت دائما وأبدا سلاحنا الأول «وعقيدتنا القتالية» في كل مراحل الجهاد لتحرير بلادنا من الهيمنة الغربية . . ولتحرير القدس وفلسطين من الاغتصاب . .

إنها صفحات من «الوعى بالتاريخ» . . وليست «تسلية» بقراءة التاريخ . .

كما أن موضوعها ليس «أى تاريخ» . . وإنما هو تاريخ الأرض المقدسة، التى بارك الله فيها وحولها . . عندما جعل الرباط بينها وبين الحرم المكى الشريف آية من آيات الله ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء: ١).

الأرض التى تنبأ رسولنا - صلى الله عليه وسلم - بأن أهلها فى رباط إلى يوم الدين .

ذلك هو موضوع هذا الكتاب .

دكتور محمد عمارة

- ١ -

الدين فى خدمة الدنيا !

بختام النبوة والرسالة بمحمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - .. وبنزول القرآن الكريم، معجزة خالدة، وخاتمة لمعجزات النبوات والرسالات السماوية، انتهت بمعنى تمت واكتملت عصور معجزات الأنبياء والمرسلين.

لكن الإسلام، الذى جاء وتجسد فى المعجزة الخاتمة والخالدة - القرآن الكريم - قد غدا صانع المعجزات المتواليات والدائمات، عبر الزمان والمكان، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. فصناعة الإنسان السوى، الخليفة لله فى عمران الأرض والذى تكون عزته من عزة الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - والذى إذا أقسم على الله أبرّه الله .. إن صناعة هذا الإنسان، عبر الزمان والمكان معجزة إسلامية دائمة ومتوالية دائما وأبدا.

وإقامة الاجتماع الإنسانى العادل والمتوازن على أسس من هدى الإسلام وقيمه، معجزة إسلامية خالدة ودائمة، ومتحققة دائما وأبدًا ..

ولأن القرآن، المحفوظ حفظا إلهيًا، لا تنقضى عجائبه، فإن سوره وآياته قد غدت «رحما» ولودًا للمعجزات التى يحققها المؤمنون بالإسلام والعاملون به أينما كانوا، وكلما تخلقوا بأخلاق الله، فأصبح القرآن الكريم لهم خلقا وسجايا يجسدونها فى الممارسة والتطبيق.

وإذا شئنا نموذجا ومثالا لهذا الإعجاز الدائم، فإن فى الجهاد الإسلامى، الذى صنعته وفجرته قيم الشهادة والفداء والاستشهاد، واحداً من نماذج هذا الإعجاز، المستمر منذ ظهور الإسلام وإلى هذه اللحظات.. وحتى قيام الساعة إن شاء الله.

● لقد فتح المسلمون فى ثمانين عاما أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون.. وكان الجهاد والفداء والاستشهاد هو سبيلهم لهذا الفتح الذى حرروا به الشرق من قهر الفتوحات الإغريقية والرومانية والبيزنطية الذى استمر عشرة قرون.. من الإسكندر الأكبر [٣٥٦-٣٢٤ ق. م]- فى القرن الرابع قبل الميلاد- إلى الفتوحات الإسلامية فى القرن السابع للميلاد..

● وبهذا الجهاد الإسلامى، الذى حرر الأرض.. وحرر الضمير، عندما ترك الناس أحرارا وما يدينون.. جاء الجهاد الخلقى، الذى تألق به عدل الإسلام، وتألقت به سماحته، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا.. فتحول الشرق- الذى ظل قلب العالم النصرانى لعدة قرون- إلى قلب للعالم الإسلامى.

● فلما سعت الصليبية الغربية إلى إعادة اختطاف الشرق من التحرير الإسلامي، وجيشت الجيوش في الحملات الصليبية التي شاركت فيها كل البلاد الأوروبية فجعلتها حربا «عالمية» على الإسلام والمسلمين وأقامت الكيانات الاستيطانية اللاتينية في قلب الشرق الإسلامي مدة قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠هـ/ ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] ونهضت البابوية الصليبية فغلفت المطامع الاستعمارية المادية والدنيوية بغلاف العقيدة الصليبية، وخطب البابا الذهبي «أوربان الثاني» [١٠٨٨ - ١٠٩٩ م] في فرسان الإقطاع الأوروبيين سنة ١٠٩٥ م - في «كليرمونت» بجنوبي فرنسا - فقال:

«يا من كنتم لصوصًا كونوا اليوم جنودًا.. ! لقد آن الزمان الذي فيه تحوّلون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن.. هي.. في حق الله عينه.. وليست هي لاكتساب مدينة واحدة.. بل هي أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزاينها العديمة الإحصاء.

فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلّصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم فهذه الأرض - حسب ألفاظ التوراة - تفيض لبنا وعسلا.. ومدينة أورشليم هي قطب الأرض المذكورة والأمكنة المخصبة المشابهة فردوسا سماويا..

اذهبوا وحاربوا البربر [يقصد المسلمين!] لتخليص الأراضي المقدسة من استيلائهم.. امضوا متسلحين بسيف مفاتيح البطرسية [أي مفاتيح

الجنة التى صنعها البابا !] واكتسبوا بها لذواتكم خزاين المكافآت السماوية الأبدية. فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم، فالمُلك الشرقى يكون لكم قسماً وميراثاً.

وهذا هو الحين الذى فيه أنتم تفدون عن كثرة الاغتصابات التى مارستموها عدواناً.. من حيث أنكم صبغتم أيديكم بالدم ظلماً، فاغسلوها بدم غير المؤمنين»[1]] !.

فهى حرب اللصوص المخضبة أيديهم بدماء الأبرياء.. لكنها - بنظر الصليبية الكاثوليكية - مقدسة.. فى سبيل الله.. طالما أن هؤلاء اللصوص القتلة سيغسلون الدماء الملطخة بها أيديهم بدماء المسلمين!. وبذلك يحوزون الجنة.. ومعها - أو قبلها - يمتلكون ويتوارثون أقاليم الشرق الغنية، التى تفيض لبناً وعسلاً، والتى تعز خزائنها على الإحصاء!!!.

❊ ❊ ❊

وعندما اقتحمت الجيوش الصليبية - يومئذ - مدينة القدس - سنة ٤٩٢هـ - ١٠٩٩ م. وأبادوا جميع من كان بها من المسلمين - ومعهم اليهود - بالقتل والذبح والإحراق.. بمن فى ذلك الذين احتموا بمسجد قبة الصخرة - مسجد عمر بن الخطاب [٤٠ ق. هـ ٢٣ هـ/ -

---

(١) مكسيموس مونروند [تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق، المدعوة حرب الصليب] المجلد الأول ص ١٢ - ١٤، ترجمة مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥م.

٥٨٤ - ٦٤٤ م] الذى سبق وعقد لنصارى القدس عهد الأمان العمرى، واحترم قدسية كنيسة القيامة، حتى لقد تحرج أن يصلى فيها، تلبية لرغبة البطرك «صفر ينوس» [١٧ هـ ٦٣٨ م] كى تظل دائما وأبدا خالصة للنصارى.

حول الصليبيون مسجد عمر إلى بحيرة من دماء المسلمين، وصفها المؤرخ النصرانى «مكسيموس مونروند» - وهو رجل دين - فقال:

«إن ديوان المشورة العسكرية قد قطع حكما رهيبا: أن يُمات كل مسلم باق داخل المدينة المقدسة.. ودامت هذه الملحمة سبعة أيام كاملة.. على أنه باطلا - [أى عبثا] كان الإسلام [أى المسلمين] فى أورشليم يجدّون مفتشين عن مهرب يحتمون به حياتهم.. فعدد كلٍّ منهم قد هربوا إلى جامع عمر ظانين أنهم هناك يحمون ذواتهم من الموت، ولكن ظنهم خاب، إذ إن الصليبيين - خيالة ومشاة - قد دخلوا الجامع المذكور، وأبادوا بحد السيف كل الموجودين هناك.. حتى استوعب الجامع من الدم بحرا متموجا، علا إلى حد الركب، بل إلى لجم الخيل.. وذلك مما فتكت به سيوف الجيوش الصليبية أرقاب [أى رقاب] الإسلام [أى المسلمين].

ولما حل المساء، اندفع الصليبيون يبكون من فرط الضحك [!!] - بعد أن أتوا على نبيذ المعاصر [!!] - إلى كنيسة القيامة، ووضعوا أكفهم الغارقة فى الدماء على جدرانها ورددوا الصلوات!! ثم كتبوا إلى البابا فقالوا

له: يا ليتك كنت معنا لتشهد خيولنا وهى تسبح فى دماء الكفار [أى المسلمين]!!.[1].

ويشهد هذا المؤرخ النصرانى ـ صاحب كتاب [تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق المدعوة حرب الصليب] ـ على أن الدنيا والمال والجشع كانت هى الأهداف الصليبية التى غلفتها الكنيسة الكاثوليكية وحملاتها الحربية بغلالة مهترئة من الدين .. فيقول: «إن الكثيرين من الأشراف والعظماء الصليبيين صاروا يعتبرون الحروب بمنزلة مهنة صناعية لاحتشاد ـ [جمع] ـ الأموال الغنيمة، بل إن التعطش نحو أخذ الغنائم وحده كان يجذب الجيش إلى المحاربة»!!.

* * *

● ولم ينس الصليبيون كنوز المساجد.. وحتى مسجد عمرو، فظل قائدهم «تنكريد» ينهب كنوزه يومين كاملين وبعبارة صاحب كتاب [تاريخ الحروب المقدسة]: «فالقايد تنكريد قد امتلك جميع الغنى الذى وجد فى جامع الإمام عمر وهذه قد كانت عظيمة المقدار والقيمة. حتى إنه ـ حسب تقرير أحد المؤرخين ـ لم تكفها ست عرابانات كبيرة لنقلها، وإنه قد استمر هو مدة يومين مباشرا إخراجها من ذلك الجامع»[2].

هكذا بدأت الصليبية الغربية حروبها «المقدسة» التى قالت إنها «فى

---

(١) المصدر السابق. المجلد الأول ـ ص ١٧٢ ـ ١٧٥.

(٢) المصدر السابق. المجلد الأول ص ١٧٦.

عين الله ذاته» أي في سبيل الله ! . والتي سلحت فيها فرسان الإقطاع - اللصوص . . الملطخة أيديهم بدماء الأبرياء - بمفاتيح الجنة - المفاتيح البطرسية ! ! .

ولقد ساقت هذه الصليبية الكاثوليكية الغربية «حجة» غريبة وفجة وشاذة لتجعلها غلالة دينية لهذه الحرب الوحشية ضد الشرق الإسلامي وأمته وحضارته، وذلك عندما قالت إنها حرب مقدسة لانتزاع قبر المسيح من أيدي المسلمين . . وهي بذلك تتجاهل أن المسيحية ديانة شرقية، ولد نبيها ورسولها في الشرق، ووقعت أحداثها الأولى في الشرق . . وأن تدين أي إنسان أو جماعة أو شعب - في أي مكان آخر - بهذه المسيحية، لا يرتب له حقوق امتلاك الوطن الشرقي الذي ظهرت فيه المسيحية . . وإلا لكان من حق المسلمين في نيجيريا أو أندونيسيا أو ألبانيا أن يشنوا حروبا مقدسة لامتلاك مكة والمدينة والحجاز ! ! . . ولكان من حق المتدينين باليهودية في البلاد الاسكندنافية - مثلا - أن يطالبوا بامتلاك البقاع التي نزلت فيها ألواح التوراة على موسى عليه السلام ! . .

ولكنه «المنطق الصليبي» الذي أرادوا به تغليف الحرب الاستعمارية، لامتلاك الشرق وثرواته، وإعادة اختطافه من التحرير الذي أنجزه الإسلام .

ـ ٢ ـ

الصليبية الكاثوليكية

ولقد استنفرت هذه الغزوة الصليبية الأولى روح الجهاد الإسلامي، لتحرير القدس وفلسطين.. فقامت دول الفروسية الإسلامية ـ الدولة الزنكية [٥٢١ ـ ٦٤٨ هـ/ ١١٢٧ ـ ١٢٥٠م] والأيوبية [٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ/ ١١٧١ ـ ١٢٥٠م] والمملوكية [٦٤٨ ـ ٩٢٢هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م] قامت لتقذف بالقلاع والحصون والجيوش الصليبية إلى حيث أتت.. ولتعيد ـ بالجهاد الإسلامي ـ تحرير الشرق ثانية من الاستعمار الصليبي الاستيطاني.

لقد حررت الفروسية الإسلامية القدس وفلسطين من الغزاة.. ولكنها ـ بسماحة الإسلام ـ أبقت المدينة المقدسة مفتوحة لكل أصحاب المقدسات.. وأعلن ذلك صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ/ ١١٣٧ ـ ١١٩٣ م] في رسالته إلى الملك الصليبي «ريتشارد قلب الأسد» [١١٥٧ ـ ١١٩٩ م] فقال: «القدس إرثنا كما هي إرثكم.. من القدس عرج نبينا إلى السماء.. وفي القدس تجتمع الملائكة.. لا تفكر بأنه يمكن لنا أن نتخلى عنها كأمة مسلمة. أما بالنسبة إلى الأرض، فإن

احتلالكم فيها كان شيئا عرضيا، وحدث لأن المسلمين الذين عاشوا فى البلاد حينها كانوا ضعفاء، ولن يمكنكم الله أن تشيدوا حجرا واحدا فى هذه الأرض طالما استمر الجهاد..»[1].

فالجهاد الإسلامى هو سبيل التحرير لهذه الأرض المقدسة، لا لتكون احتكاراً للمسلمين وحدهم - كما احتكرها الرومان، فى عهد وثنيتهم وفى عهد نصرانيتهم.. وكما احتكرها الصليبيون عندما احتلوها قرابة التسعين عاما [٤٩٢-٥٨٣ هـ/ ١٠٩٩-١١٨٧ م]. وكما يحتكرها اليوم الصهاينة - وإنما يحررها الجهاد الإسلامى، ليشيع قدسيتها بين جميع أصحاب المقدسات، لأن الإسلام وحده هو الذى يؤمن ويعترف بأنبياء وشرائع ومقدسات كل أصحاب المقدسات!..

● فلما تحالفت الصليبية الغربية مع الوثنية التترية ضد الإسلام وأمته وحضارته.. وهددت الغزوة التترية الوجود الإسلامى، وأرسل «هولاكو» [٦١٤-٦٦٣ هـ/ ١٢١٧-١٢٦٥ م] إلى حكام مصر - المماليك - إنذاره المزلزل، الذى قال فيه - مخاطبا الملك المظفر قطز [٦٥٨-١٢٦٠ م]:

«إنا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه..ولقد فتحنا بغداد، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسرنا سكانها.. فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم وأسلموا

---

(١) صحيفة [الحياة] لندن فى ٢٧-١-١٩٩٦ م

إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، وتندموا على الأخطاء. فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى، وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأى أرض تؤويكم؟ وأى طريق ينجيكم؟ وأى بلاد تحميكم؟ إن كنتم فى الجبال نسفناها، وإن كنتم فى الأرض خسفناها. فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وأعدادنا كالرمال، فمن طلب حربنا ندم.. فالحصون معنا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع.. فاتعظوا بغيركم، وسلموا إلينا أمركم..ولقد أعذر من أنذر»!!.

لما أرسل «هولاكو» - المتحالف مع الصليبية الغربية - هذا الإنذار المزلزل، الذى جعل البعض يحسبون - من هوله - «أن القيامة قد قامت»[1]!! .. لما حدث ذلك استنفر الجهاد الإسلامى طاقات الأمة ومعدنها النفيس.. فأذاقت هذه الغزوة التترية المدمرة أولى هزائمها التاريخية فى «عين جالوت» [٦٥٨ هـ ١٢٦٠ م].. ثم كان الجهاد الإسلامى - الفكرى - الجهاد الكبير بالقرآن الكريم ﴿ وجاهدهم به جهادا كبيرا ﴾ (الفرقان: ٥٢). الذى هدى هذه القوة المدمرة إلى الإسلام.. وحولها إلى سيف من سيوف الجهاد الإسلامى فى سبيل حضارة الإسلام ودار الإسلام!.

❊ ❊ ❊

(١) المقريزى [كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك] جـ١ ق١ ص ٤٢٧، ٤٢٨. تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م.

● وفى العصر الحديث.. بدأت الغزوة «الصليبية» - الإمبريالية» دورة أخرى ضد الشرق الإسلامى، منذ ما يزيد على خمسة قرون فبعد أن نجحت الصليبية فى اقتلاع الإسلام وحضارته من الأندلس، بإسقاط «غرناطة» فى ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ - يناير سنة ١٤٩٢ م. بدأت فى أغسطس من نفس العام الغزوة «الصليبية الإمبريالية» الثانية، وذلك بالالتفاف حول العالم الإسلامى، تمهيدا لضرب قلب العالم الإسلامى، والاستيلاء - مجددا - على القدس وفلسطين.. وإعادة الاستعمار الغربى إلى الشرق من جديد.. بدأت هذه الغزوة الصليبية الجديدة سنة ١٤٩٢ م.. أى فى ذكرى مرور قرنين على اقتلاع آخر حصون الغزوة الصليبية الأولى فى الشرق الإسلامى - حصن عكا - سنة ١٢٩١ م!!.

ولقد كان مشروع «كريستوفر كولمبس» [١٤٥١ - ١٥٠٦ م] هو طليعة هذه الغزوة الصليبية الجديدة، التى مثلت حلقة موصولة فى سلسلة هذا الصراع الغربى لإعادة اختطاف الشرق من الإسلام.. فلما ضل «كولمبس» طريقه، وذهب إلى أمريكا - الأرض الجديدة - التى حسبها جزر الهند الغربية.. خرجت - بعد خمس سنوات [٩٠٢ هـ - ١٤٩٧ م] حملة صليبية ثانية، بقيادة البرتغالى «فاسكو دى جاما» [١٤٦٩ - ١٥٢٤ م] ونجحت فى الالتفاف حول العالم الإسلامى، وذهبت إلى شواطئ الهند الإسلامية، وخرج الجيش المصرى المملوكى - من ميناء السويس ليذهب كى يحاربها هناك [٩١٠ هـ - ١٥٠٤ م] ثم خرجت حملة البرتغالى «ماجلان» [١٤٨٠ -

١٥٢١ م] لـيـذهب إلى شـواطئ الفلبين المسلمـة، حـيـث قـتل «ماجلان» هناك وهو يحارب المسلمين [٩٢٧ هـ ١٥٢١ م].. وليبدأ منذ ذلك التاريخ تنصير الفلبين التي كانت عاصمتها «مانيلا» تسمى ـ يومئذ ـ «أمان الله»!.

● ولأن القـدس وفلسطين كـانت دائمـا هي رمـز هـذا الصـراع التاريخي فإن «كولمبس» قـد كـتب إلى «سـيديه الأكثر تدينا»: الملك «فرد يناند» [١٤٧٩ ـ ١٥١٦م] والملكة «إيزابيلا» [١٤٧٤ ـ ١٥٠٤ م] كما جاء في يومياته ٢٦ ديسمبر سنة ١٤٩٢م ـ يقول: إن هـدفـه هو «العثور على الـذهب بكميـات كبيرة، حتى يتسنى للملكين أن يفتحا الديار المقـدسة خـلال ثلاث سنوات. فـقـد أعلنتُ لسموكمـا أن كل المغانم التي سيدرها مشروعي هذا سوف تنفق على فتح القـدس. وقد ابتسمتما ـ يا صاحبي الجلالة ـ وقلتما: إن ذلك يسركما..»[1].

● وبعد أن تعددت رحلات «كولمبس» إلى أمريكا «وجمع الذهب بكميات كبيرة» لم ينس أن المقصد الأصلي والأساسي والأعظم لمشروعه هو القدس وفلسطين.. فكتب إلى القيادة الصليبية ـ الممثلة يومئذ في الملكين «فرديناند» و«إيزا بيلا» «الرسالة» «الوثيقة» التي تؤكد على ضرورة توجيه الحملة الصليبية لانتزاع القدس وفلسطين من أيدي المسلمين.. وفي هذه «الرسالة ـ الوثيقة» التي كتبها [٩٠٧ هـ ـ ١٥٠١ م] يعلن أن هدف رحلته الأصلية ـ في أغسطس سنة ١٤٩٢م

---

(١) صحيفة [الأهرام] القاهرة ـ ٢٨ ـ ٤ ـ ٢٠٠٤ م ـ مقال أحمد عبد المعطي حجازي [أول إسرائيل آخر أمريكا].

والتي كان هدفها المعلن الطواف حول إفريقيا والذهاب إلى جزر الهند الغربية، لتحويل تجارة الشرق عن الطريق الإسلامي، لإضعاف العالم الإسلامي اقتصاديا .. إنما كان الهدف أكبر وأخطر، وهو تطويق العالم الإسلامي للانقضاض على فلسطين واغتصاب القدس من جديد.. القدس التي سبق وحررها صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ/ ١١٣٧ - ١١٩٣ م] من الأسر الصليبي [٥٨٣ هـ ١١٨٧ م] أي أن مشروع «كولبس» لإعادة الاحتلال الصليبي للقدس قد بدأ بعد ثلاثة قرون من تحرير صلاح الدين الأيوبي لها من أسر الصليبيين القدماء!..

وعن هذه المقاصد العليا والأكبر والأخطر - «حملة صليبية لاستعادة احتلال القدس» يتحدث «كريستوفر كولبس» وكأنه قسيس صليبي فيقول:

«صاحبي السمو، الأكثر تدينا والأعلى مرتبة..

إن فهمي وإدراكي لمسألة استرداد الضريح المقدس بمدينة القدس لصالح الكنيسة المقدسة عسكريا سوف أقوم بتوضيحه فيما يلي.. لقد ارتحلت إلى كل مكان يمكن الإبحار إليه حتى الآن .وبإلهام من الرب، أبحرت من بلادي إلى الهند.. كما ألهمني الرب أن أمثل أمام جلالتكم.. لقد تجسد الدين والإيمان والإخلاص في جلالتكم، ومن ذا الذي يستطيع أن يشك في أن هذا الإلهام قد جاء من الروح القدس ومني؟ وأنه الرب الذي يشعرك بالراحة عبر النور المدهش والوضوح المستمد

من خلال كتابه المقدس والسامى، الذى يتصف بالطهارة والصفاء، مع الكتب الأربعة والأربعين للعهد القديم، والأناجيل الأربعة، وثلاث وعشرين رسالة إنجيلية للحواريين المقدسين. كل ذلك ألهمنى بأن أتقدم وأتابع عملى، كما قام بتشجيعى لأن أثابر على هذا العمل، وأن أقوم به بهمة وسرعة كبيرة دون توقف.

وأراد ربنا أن يكشف المعجزة الأكثر وضوحا فى تلك الرحلة البحرية باتجاه الهند من أجل أن يواسينى وآخرين، عن المسألة المتعلقة باسترداد الضريح المقدس بمدينة القدس.

لقد مكثت سبعة أعوام فى بلاطكم الملكى، مناقشا الأمر مع العديد من الرجال.. إن ما حدث هو الذى سبق أن قال به يسوع المسيح المخلص، وذكره من قبل عبر رسالة المقدسين. ولهذا فيجب علينا أن نؤمن بأن أمر القيام بحملة صليبية لاستعادة مدينة القدس، لهو أمر سوف يتحقق بالفعل.. لقد قلت إننى سوف أتحدث عن فهمى وإدراكى لمسألة استعادة الضريح المقدس بمدينة القدس إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية، ولهذا فيجب علىّ تنحية جميع رحلاتى البحرية منذ حداثة سنى، وكذا الأحاديث التى أجريتها مع أناس من ملل وطوائف متباينة، فى أراض مختلفة. وأن أشير فقط إلى الكتاب المقدس وإلى آياته التنبؤية التى قال بها أشخاص يتصفون بالقداسة، والذين ـ عبر الوحى والإلهام ـ ذكروا أشياء حول هذا الأمر..هذا هو ما أردت أن أقوم بكتابته، لتذكير جلالتكم به، ولتشجيع سموكم على القيام بالحملة الأخرى، المتعلقة باسترداد مدينة القدس، عبر الرجوع إلى الآيات

التنبؤية بالكتاب المقدس. وما دام تتوافر لدى جلالتكم الإيمان الصادق، فلتكونوا واثقين من إحراز النصر في مسألة استعادة الضريح المقدس ومدينة القدس.

يجب على أي شخص ألا يخشى القيام بأي أمر يتم تحت اسم مخلصنا وبرعايته ما دام العزم قويا، خاصة أن ذلك الأمر لهو أمر عادل، ويتم من أجل خدمة الرب المقدس.. ولا بد أن جلالتكم تتذكرون أنكم شرعتم في حربكم مع مملكة غرناطة المسلمة، دون أن تكون لديكم أموال وفيرة.

إن هناك أمورا عظيمة في هذا العالم، وإن هناك إشارات وعلامات بأن ربنا يدفعنا للقيام بتحقيقها كالتبشير بالإنجيل في أراض كثيرة ومتعددة في وقت زمني قصير.. ولقد ذكر الكاردينال «بيير» الكثير عن نهاية المسلمين كما أن الأب «يواقيم الفيوري» قد ذكر أن الشخص الذي سيقوم بإعادة بناء الضريح المقدس للمسيح، فوق جبل صهيون بالقدس، سوف يخرج من إسبانيا..»[1].

تلك هي الرسالة «الوثيقة» التي امتزجت فيها «الأيديولوجية الصليبية» بالأطماع الاستعمارية، وأصبح فيها «الذهب» متسربلا بثياب الكهنوت، وصولا إلى المزيد من الذهب الداعم للكهنوت!.

---

(١) د. حاتم الطحاوي [وثيقة نادرة: بعد غرناطة جاء دور القدس] مجلة [العربي]، الكويت العدد ٥٣٢ ـ مارس سنة ٢٠٠٣ م، ص ٦٢ ـ ٦٧.

الرسالة التي تشهد على أن الغزوة الصليبية التي تعالجها ونتعامل معها الآن، قد بدأت قبل خمسمائة عام.. والتي احتفل الغرب الصليبي بذكراها الخمسمائة سنة ١٩٩٢م بدورة أولمبية في «برشلونة» المسرح الذي اقتلع منه الإسلام - في غرب أوربا - وقام - هذا الغرب الصليبي - في عام ذلك الاحتفال - سنة ١٩٩٢م - بحروب البوسنة والهرسك، لاقتلاع الإسلام من وسط أوربا!!.. وذهب لاعبونا فلعبوا هناك، دون أن يكون لديهم وعي بفلسفة التوقيت.. والمكان.. والألعاب!.. لأن «ثقافة اللعب» قد جردتهم من «الوعي بالتاريخ»!.

● أما «كولمبس» - الذي يدرسه «اللاعبون» باعتباره مجرد «مكتشف جغرافي عظيم» - فلقد كتب في العام التالي سنة ١٥٠٢م. إلى البابا «اسكندر السادس» [١٤٩٢ - ١٥٠٣م] - ليذكّر.. وليحث على تجييش هذه الحملة الصليبية.. وليقول:

«لقد اضطلعت بهذه المهمة - [الرحلات إلى أرض الذهب في أمريكا] - لننفق ما سوف نكتسبه منها في ردّ الديار المقدسة.

وبعد أن ذهبت إلى هناك، ورأيت الأرض كتبت إلى الملك وإلى الملكة - سيّدَيّ - إنه منذ ذلك اليوم وعلى مدار سبع سنوات، سوف أحتاج إلى خمسين ألفا من الجنود المشاة وخمسة آلاف فارس لفتح الديار المقدسة»[1]!!.

---

(١) صحيفة [الأهرام] - القاهرة في ٢٨-٤-٢٠٠٤م. مقال أحمد عبد المعطي حجازي: [أول إسرائيل آخر أمريكا].

هكذا كانت القدس وفلسطين - دائما وأبدا - رمز الصراع التاريخي بين الصليبية الغربية وبين عالم الإسلام..

وهكذا تعلمنا هذه الوثائق فقه الصراع على القدس وفلسطين.

وهكذا كانت الصليبية الكاثوليكية الغربية سلاحا في الحروب الاستعمارية التي استهدفت إعادة اختطاف الشرق من أمة الإسلام طوال تلك القرون.

-٣-

الصليبية البروتستانتية

إذا كانت «حجة» الصليبية الكاثوليكية - في إعادة اختطاف القدس وفلسطين قد ظلت ظاهرة الغرابة والفجاجة والشذوذ.. وذلك لأن تدينها بالمسيحية - التي ظهرت في الشرق - لايعطيها الحق في امتلاك الوطن الشرقي الذي ظهرت فيه المسيحية.. وإلا لتنازع معها في هذا «الحق» المتدينون بالمسيحية من كل البقاع، ومن مختلف الكنائس، وذلك فضلا عن الشرقيين المتدينين بالمسيحية، والذين هم الأحق بالوطن الذي هم مواطنوه!.

ولو أن هذه «الحجة» الصليبية جازت، لكان من حق المتدينين باليهودية في روسيا - مثلا - امتلاك المواطن التي نزلت فيها ألواح التوراة على موسى عليه السلام! وقس على ذلك «حقوق» المسلمين في نيجيريا - مثلا - إزاء مكة والمدينة والحجاز!.

إذا كانت «حجة» هذه الصليبية الكاثوليكية قد ظلت على هذا النحو من الغرابة والفجاجة والشذوذ.. فإن الصليبية البروتستانتية -

التى بدأت بانشقاق «كالفن» [١٥٠٩ ـ ١٥٦٤ م] و«مارتن لوثر» [١٤٨٣ـ١٥٤٦م] عن الكاثوليكية ـ قد أضفت الأساطير الدينية على هذا الحلم الاستعمارى الغربى القديم، كما أشركت «العنصرية اليهودية» مع «الصليبية المسيحية» فى مشروع الطمع فى استعمار القدس وفلسطين، فبدأت تشيع فى الأوساط البروتستانتية التفسيرات الأسطورية التى تجعل استيلاء الغرب النصرانى على القدس وفلسطين، وحشر اليهود فيهما وهدم المسجد الأقصى، وإقامة «الهيكل اليهودى» على أنقاضه، هى المقدمات والشروط لعودة المسيح ـ عليه السلام ـ إلى الأرض ثانية ليحكم العالم ألف سنة سعيدة، بعد معركة «هرمجيدون»، التى سيباد فيها المسلمون ومعهم اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح!.

وإذا كانت البروتستانتية قد جعلت من كتاب اليهود ـ [العهد القديم] ـ كتابها المقدس، واتخذته المنطلق الذى تفسر فى ضوئه إصحاحات [العهد الجديد].. فإن كتابات كثيرة تفسر هذا التحول فى الموقف المسيحى من التراث اليهودى بالدور الذى لعبه اليهود فى إحداث هذا الانشقاق الأكبر والأخطر الذى حدث فى تاريخ المسيحية الغربية، والذى أفضى إلى الحروب الدينية الأوروبية ـ على مدى قرنين من الزمان [١٥١٧ ـ ١٦٧٢ م].. وهى الحروب التى أبيد فيها ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا!!.

ففى الخطابات التى ألقيت فى مؤتمر «مجمع بناى بريث» اليهودى ـ

في باريس، والتي نشرتها مجلة «كاتوليك جازيت»، عدد فبراير سنة ١٩٣٦ م. نقرأ قول الحاخامات المؤتمرين في هذا «المجمع».

«والآن دعونا توضح لكم كيف مضينا في سبيل الإسراع بقصم ظهر الكنيسة الكاثوليكية، فاستطعنا التسرب إلى دخائلها الخصوصية، وأغوينا البعض من رعيتها (كهنتها الداخليين) ليكونوا روادا في حركتنا ويعملون من أجلنا. أمرنا عددا من أبنائنا بالدخول في جسم الكاثوليكية، مع تعليمات صريحة بوجوب العمل الدقيق والنشاط الكفيل بتخريب الكنيسة من قلبها، عن طريق اختلاق فضائح داخلية. ونكون بذلك قد عملنا بنصيحة أمير اليهود، الذي أوصانا بحكمة بالغة: دعوا بعض أبنائكم يكونوا كهنة ورعاة أبرشيات، فيهدموا كنائسهم. ومع الأسف الشديد لم يبرهن جميع اليهود من أبناء العهد عن إخلاصهم للمهمة الموكولة إليهم، فخان كثيرون العهد، لكن الآخرين حافظوا على عهدهم، ونفذوا مهماتهم بشرف وأمانة.

ونستطيع التصريح اليوم بأننا نحن الذين خلقنا حركة الإصلاح الديني للمسيحية، فكالفين كان واحدا من أولادنا، يهودي الأصل، أمر بحمل الأمانة بتشجيع المسئولين اليهود ودعم المال اليهودي، فنفذ مخطط الإصلاح الديني، كما أذعن مارتن لوثر لإيحاءات أصدقائه اليهود، وهنا أيضا نجح برنامجه ضد الكنيسة الكاثوليكية بإرادة المسئولين اليهود وتمويلهم.

ونحن نشكر البروتستانت على إخلاصهم لرغبتنا، برغم أن معظمهم،

وهم يخلصون الإيمان لدينهم لا يعون مدى إخلاصهم لنا. إننا نجد ممتنون للعون القيم الذي قدموه لنا في حربنا ضد معاقل المدنية المسيحية، استعدادا لبلوغ مواقع السيطرة الكاملة على العالم»[1].

لقد أصبح التراث اليهودي تراثا للبروتستانتية، وتم إلى حد كبير، تهويد المسيحية - بدلا من مسحنة اليهودية.. وفي موضوعنا - القدس وفلسطين - حولت البروتستانتية المشروع الغربي القديم لاغتصاب القدس وفلسطين من مشروع «صليبي - غربي» إلى مشروع غربي «صليبي - يهودي»، وذلك عن طريق التأسيس الأسطوري لهذا الاغتصاب!.

● ففي سنة ١٥٢٣ م أصدر «مارتن لوثر» كتابه [المسيح يهوديا] وفيه قال:

«إن الروح القدس أنزل كل أسفار الكتاب المقدس عن طريق اليهود وحدهم. إن اليهود هم أبناء الله ونحن الضيوف والغرباء، ولذلك فإن علينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل مما يتساقط من فتات مائدة أسيادها!»[2].

ولقد أدخلت البروتستانتية إلى صميم العقيدة المسيحية ثلاثة مبادئ:

---

(١) محمد السماك [الأصولية الإنجيلية، أو الصهيونية المسيحية والموقف الأمريكي] ص ٧، ٨. طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي - مالطا - سنة ١٩٩١ م.

(٢) المرجع السابق - ص ٣٦.

أولها: أن اليهود هم شعب الله المختار.

وثانيها: أن ثمة ميثاقا إلهيا يربط اليهود بالأرض المقدسة في فلسطين.

وثالثها: ربط الإيمان المسيحي بعودة المسيح بقيام دولة صهيون.

وبهذا أصبحت عودة اليهود إلى فلسطين عقيدة دينية بروتستانتية بعد أن كانت هذه العودة عند الكاثوليك . . . وكذلك الأرثوذكس - هي العودة اليهودية من بابل التي طردوا إليها عقابا لهم على صلب المسيح . . وهو الطرد الذي انتهى به - في العقيدة الكاثوليكية والأرثوذكسية - وجود الأمة اليهودية دينيا في التاريخ . .

ثم تقدمت البروتستانتية في هذا الميدان خطوة أخرى، وذلك عندما فسرت أساطير «رؤيا يوحنا» تفسيرا ماديا، وربطت - في هذا التفسير - عودة المسيح عليه السلام إلى الأرض - ليحكمها ألف سنة سعيدة، بحشر اليهود في فلسطين، وإعادة إقامة «هيكلهم» على أنقاض المسجد الأقصى . . فأصبح الاغتصاب اليهودي للقدس وفلسطين شرطا لتحقيق عقيدة العودة البروتستانتية . . أي أن عودة اليهود لفلسطين قد أصبحت دينا بروتستانتيا تمهد لعودة المسيح عليه السلام.

ولقد استند البروتستانت - في هذه العقيدة - إلى رؤيا يوحنا» التي

يرى البعض من الباحثين النصارى أن نصها هو تلفيق لنصوص ثلاثة، تحولت إلى نص واحد في أواخر عهد الامبراطور الروماني «دوميتيان» [٨١ - ٩٦ م]. . ومن ثم فإن الثقة في «نصها» ليست فوق مستوى الشبهات. . وذلك فضلا عن أنها مجرد «رؤيا» أسطورية خاضعة «للتأويل»[1].

● وانطلاقا من هذا «الاعتقاد» البروتستانتي، وجه اثنان من علماء اللاهوت - هما «جوانا» و«ألبنزركار ترايت» - سنة ١٦٤٩ م. نداء إلى الحكومة الإنجليزية - الانجليكانية - لإقامة الشراكة مع اليهود في المشروع الغربي لاغتصاب القدس وفلسطين، فطالبا بأن يكون للبروتستانت - في انجلترا وهولندا - «شرف نقل اليهود إلى الأرض التي وعد الله بها أجدادهم: إبراهيم وإسحق ويعقوب ومنحهم إياها إرثا أبديا!»[2].

● وفي سنة ١٦٥٥م. تبنت انجلترا - تحت حكم «أوليفر كرومويل» [١٥٩٩ - ١٦٥٨ م] - هذا النداء. . فقرر «كرومويل» إلغاء قانون النفي الذي سبق وأصدره الملك «إدوارد» [١٨٤١ - ١٩١٠ م] ضد اليهود. . فبدأت عودتهم إلى انجلترا، تمهيدا لعودتهم - في ركاب الاستعمار الإنجليزي - للشرق ليكونوا ركيزة لهذا الاستعمار على أرض القدس وفلسطين. . وبذلك غدت عودة اليهود لفلسطين

---

(١) المرجع السابق. ص ٣٦، ٣٩.

(٢) المرجع السابق. ص ٢٠.

مشروعا استعماريا غربيا، تعمل الحكومات والمؤسسات الدينية البروتستانتية على وضعه فى الممارسة والتطبيق.

● أما الكنيسة الأرثوذكسية فإنها قد نأت بنفسها عن هذه التفسيرات الأسطورية، التى جعلت اليهود شعبا مختارا لله دون جميع الشعوب.. والتى ربطتهم بالقدس وفلسطين رباطا إلهيا مقدسا وأبديا.. والتى ربطت عودة المسيح إلى حكم الأرض ألف سنة سعيدة بقيام دولة يهودية فى فلسطين.

لقد نأت الكنيسة الأرثوذكسية بنفسها عن الإيمان بهذه الأساطير، بل ورفضتها جملة وتفصيلا منطلقة من كلمات المسيح عليه السلام، التى قطعت بانقضاء كل تلك الدعاوى منذ ظهور المسيح.

فالهيكل الذى يسعى اليهود والبروتستانت إلى إعادة إقامته ـ على أنقاض المسجد الأقصى ـ قد سبق وقطع المسيح بخرابه إلى الأبد، وذلك عندما قال: «هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا.. لن يترك حجر على حجر لا يهدم». وانطلاقا من هذه الآيات ـ فى الإنجيل ـ أعلنت هذه الكنيسة:

«إن تصريح المسيح هذا معناه: أنه لم يعد للهيكل اليهودى وجود فى المفهوم المسيحى، ومعناه أن الكيان الدينى لإسرائيل كأمة وشعب قد انتهى منذ أن نطق المسيح ـ له المجد ـ بذلك النطق الرهيب. ومنذ أن نطق المسيح بهذا النطق لم يعد شعب إسرائيل القديم هو شعب الله المختار، ولم يعد هيكلهم هيكلا للرب، ولم يعد الله راضيا عنهم

. . وقد قال العهد الجديد فى عبارة واضحة صريحة: «فإن غضب الله قد حل عليهم إلى النهاية» (١ تسالونيكى ٢ - ١٦) (١).

وهكذا نجحت الأرثوذكسية بامتياز فيما سقط فيه البروتستانت . . لأن الأولى كنيسة شرقية وطنية، بينما سخر البروتستانت الغربيون الأساطير لخدمة المقاصد الاستعمارية فى اغتصاب القدس وفلسطين! .

---

(١) الأنبا غريغوريوس [وثائق للتاريخ: الكنيسة وقضايا الوطن والدولة والشرق الأوسط] ص ١٨٠، ١٨١. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م.

- ٤ -

الاستعمار يجسد الأساطير

وعندما استحوذت ثروات أمريكا اللاتينية على أطماع الكاثوليكية الإسبانية.. توجهت الغزوة الاستعمارية الفرنسية - التي قادها «بونابرت» [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] - على مصر والشرق [١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م] لتحقيق ذات الحلم الصليبي الغربي القديم: انتزاع القدس وفلسطين من أيدي الإسلام والمسلمين.. فسارت «الوضعية - الدهرية» الغربية - إزاء هذه الأطماع - على طريق الصليبيين اللاهوتيين!.

وحتى لا يكرر «بونابرت» أخطاء الغزوة الصليبية الأولى، عندما فشلت في إيجاد ركائز وعملاء لاستعمارها من أبناء الأقليات الدينية في الشرق.. بدأ «بونابرت» أولى محاولات الغرب - العملية - لإقامة حلف وشراكة مع اليهود ضد العرب والمسلمين.. فأصدر نداءه الشهير - وهو على أسوار «عكا» سنة ١٢١٣ هـ ٤ أبريل سنة ١٧٩٩ م - إلى يهود العالم، يدعوهم إلى التحالف مع غزوته الاستعمارية وإلى خدمة مقاصده الامبراطورية، مقابل إعادة زرعهم في أرض فلسطين.. وقال في هذا النداء:

«أيها الشعب الفريد!.. إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن، حاملة إرث إسرائيل.. إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به.. قد اختار القدس مقرا لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق التى استهانت طويلا بمدينة داود، وأذلتها!.. ياورثة فلسطين الشرعيين! إن الأمة الفرنسية.. تدعوكم إلى إرثكم، بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء»!![1].

● وعندما هزم الجهاد الإسلامى للشعب المصرى - بقيادة السيد عمر مكرم [١١٦٨ - ١٢٣٧ هـ/ ١٧٥٥ - ١٨٢٢ م] - حملة بونابرت، فخرجت من مصر مدحورة [١٢١٦ هـ - ١٨٠١م].. وقامت فى مصر دولة حديثة وقوية - تحت قيادة محمد على باشا الكبير [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ/ ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م] - سعت هذه الدولة إلى تجديد شباب الشرق الإسلامى، لإنقاذه من الضعف العثمانى، الذى أخذ الاستعمار الغربى فى استغلاله، بل وحراسته، حتى يرث ولايات الدولة العثمانية - التى سماها دولة الرجل المريض -!.. سعت الدولة المصرية الحديثة إلى توحيد الشرق العربى - بما فيه القدس وفلسطين - مع مصر والسودان والصومال واليمن.. فبنت دولة حديثة وكبرى.. وعند ذلك شرع الاستعمار الإنجليزى - المنافس للاستعمار الفرنسى على احتلال الشرق - فى التصدى لهذا المشروع الإنقاذى الذى قادته الدولة المصرية الحديثة.. فاحتلت انجلترا عدن سنة ١٨٣٨ م، لمواجهة

---

(١) د. محمد عمارة [فى فقه المواجهة بين الغرب والإسلام] ص ٢١. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٣م.

هذا المشروع التوحيدي والإتقاذي. وأخذت في اللعب على التناقضات بين محمد على باشا وبين السلطان العثماني.. وأمسكت بخيوط الشراكة مع الجماعات اليهودية - تلك الشراكة التي دعا إليها بونابرت إبان حملته على مصر.. فكان أن حاول المليونير اليهودي الإنجليزي «موسى حاييم مونتفيوري» [١٧٨٤ - ١٨٨٥ م] في ١٢٥٥هـ سنة ١٨٣٩ م استئجار عدد من القرى الفلسطينية، ليبدأ المشروع الاستعماري الاستيطاني اليهودي على أرض فلسطين.. لكن دولة محمد على باشا رفضت - بوعي مبكر - هذا المشروع.

● وفي سنة ١٨٣٨ م. بدأت انجلترا السعي لتوظيف اليهود في المشروع الاستعماري الغربي، العامل - يومئذ - على ضرب مشروع مصر محمد على باشا الكبير.. فأنشأت أول قنصلية انجليزية في القدس - سنة ١٨٣٨ م. وعينت قسيسا بروتستانتيا نائبا لقنصلها فيها!.

● وفي سنة ١٢٥٥ هـ سنة ١٨٣٩ م نشر اللورد «آشلي كوبر» (إيرل شافتسبري) [١٨٠١ - ١٨٨٥ م] دراسته التي يقول فيها: «إن اليهود هم الأمل في تجدد المسيحية، وعودة المسيح ثانية» ليحكم العالم ألف سنة سعيدة..

● وفي سنة ١٢٥٥هـ سنة ١٨٣٩ م أرسل سكرتير البحرية الإنجليزية إلى وزير الخارجية «بالمرستون» [١٧٨٤ - ١٨٦٥م] رسالة يقترح فيها دعوة أوربا للاقتداء بالملك الفارسي «قورش» [٥٥٧ -

٥٢٨ ق . م] وإعادة اليهود إلى فلسطين ، كما سبق وأعادهم «قورش» من السبى القديم ! .

● وفى سنة ١٢٥٦هـ سنة ١٨٤٠ م ـ فى الوقت الذى كانت الامبراطوريات الاستعمارية الأوروبية تتحالف ، رغم ما بينها من تناقضات وصراعات استعمارية ضد مصر وحكومة محمد على باشا ، وتسعى لتفرض عليه معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م ، التى أجبرته على سحب جيوشه من الشام . . كانت انجلترا تسعى لدى السلطان العثمانى كى يسمح بهجرة اليهود إلى فلسطين ، باعتبار ذلك العقبة أمام توحيد المشرق العربى مع مصر ، وللحيلولة دون تكرار التجربة الوحدوية لمحمد على فى مستقبل الأيام ! . . فطلب وزير الخارجية الانجليزى ـ «اللورد بالمرستون» ـ من سفيره فى الآستانة «بونسبى» فى ١١ ـ ٨ ـ ١٨٤٠ م ـ أن يطلب من السلطان العثمانى السماح بالهجرات اليهودية إلى فلسطين ولقد جاء فى هذه المذكرة ـ التى حملت رقم ١٣٤ / ٣٩٠ / ٨٧ :

« .. ويكون من مصلحة السلطان الواضحة، أن يشجع اليهود على العودة إلى فلسطين، والإقامة فيها، لأن ما سيحملونه معهم إلى البلاد من الثروة يزيد من موارد دولته. إن الشعب اليهودى بعودته إلى البلاد، بإذن السلطان، وفى حمايته، وبدعوة منه، يكون حجر عثرة فى سبيل أى أهداف سيئة تخطر ببال محمد على أو من يخلفه.. ضع هذه الاعتبارات أمام أعين الحكومة العثمانية بصفة سرية، وابذل وسعك

في إقناعـهـا بأن تقـدم كل تشـجـيع عـادل ليـهـود أوروبا لأن يعـودوا إلى فلسطين..»[1].

● وفي نفس العـام - ١٨٤٠ م - قدم اللورد الإنجليزي «شافتسبري» برنامجا إلى مؤتمر لندن بشأن توطين اليهود في فلسطين، على قاعدة: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» - وهي القاعدة التي تبنتها الشراكة «الصليبية - الصهيونية» لاغتصاب القدس وفلسطين.

● وبعد أربعة أعوام - في سنة ١٢٦٠هـ سنة ١٨٤٤ م - ألف البرلمان الانجليزي لجنة «إعادة أمة اليهود إلى فلسطين»!.

● وفي سنة ١٢٦١هـ سنة ١٨٤٥ م نشر مشروع الإنجليزي «ادوارد متفورد» «إقامة دولة يهودية متكاملة في فلسطين، تحت الحماية الانجليزية المؤقتة، إلى أن تتمكن هذه الدولة من الوقوف على قدميها».. وهو المشروع الذي حققه الانتداب البريطاني على فلسطين في القرن العشرين!.

● وفي سنة ١٨٦٠ م صدر كتاب «ارنست لاهاران» - المستشار الخاص لنابليون الثالث [١٨٠٨ - ١٨٧٣م] بعنوان [المسألة الشرقية: إعادة بناء الأمة اليهودية].

● وفي سنة ١٨٦٥ م تأسس - في لندن - برعاية الملكة «فكتوريا»

---

(١) جورج كيرك [موجز تاريخ الشرق الأوسط] ترجمة عمر الاسكندري. طبعة القاهرة مشروع الألف كتاب. وانظر كذلك: د. محمد عمارة [إسرائيل هل هي سامية؟] ص ١٤ - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م.

[١٨١٩ - ١٩٠١ م] رئيسة الكنيسة الأنجليكانية . . ورئيس كنيسة كانتربرى - «صندوق استكشاف فلسطين».

● وفى سنة ١٨٨٠ م صدر كتاب [أرض جلعاد] للورنس أوليفنت [١٨٢٩ - ١٨٨٨م] عضو البرلمان الإنجليزى الذى يقترح فيه إقامة مستوطنة يهودية إلى الشرق من نهر الأردن، تكون مساحتها مليونا ونصف المليون فدان، تحت السيادة العثمانية، وتحت الحماية البريطانية! ليهاجر إليها يهود روسيا ورومانيا . .

● وفى سنة ١٨٨١ م وقع حادث اغتيال القيصر الروسى «الاسكندر الثانى» [١٨١٨ - ١٨٨١ م] . . وتعرض اليهود - فى روسيا - للاضطهاد، فتدفقت هجراتهم إلى خارج روسيا.

● وفى سنة ١٨٨٢ م ذهب القس الإنجليزى «وليم هشلر» [١٨٤٥ - ١٩٣١] إلى السلطان عبد الحميد الثانى [١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ / ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] فى القسطنطينية، محاولا إقناعه بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين.

● وفى نفس العام - سنة ١٨٨٢م - عقد فى «إنجلترا» المؤتمر الأول لرجال الدين المسيحيين، من أجل «إيجاد حل للمسألة اليهودية».

● وفى سنة ١٨٩٤ م صدر كتاب الدبلوماسى الإنجليزى، القس «وليم هشلر» [إعادة اليهود إلى فلسطين] . تنفيذا للنبوءات الدينية.

● وبعد أن تبلور المشروع الغربي لإعادة اغتصاب القدس وفلسطين.. بعد أن تبلور هذا المشروع الاستعماري في اللاهوت البروتستانتي، والسياسة الاستعمارية الغربية.. جاء دور التطبيق لمشروع الشراكة الصهيونية للتيار القومي اليهودي مع الصليبية البروتستانتية.. جاء دور هذه الشراكة، فصدر كتاب "تيودور هرتزل" [١٨٦٠ - ١٩٠٤م] عن [الدولة اليهودية] في سنة ١٨٩٦م.. وأرسل "هرتزل" - في نفس العام سنة ١٨٩٦م - صديقه "نيولنسكي" إلى السلطان العثماني عبد الحميد، ليطلب منه فتح أبواب فلسطين للهجرات اليهودية، عارضا عليه إغراءات مالية، وتسخير النفوذ اليهودي في الدوائر الغربية لحساب الدولة العثمانية.. ولكن السلطان عبد الحميد رفض هذا العرض، من منطلقات مبدئية ووعي سياسي وقال لـ "نيولنسكي":

"إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي، فانصحه ألا يسير أبدا في هذا الأمر. لا أقدر أن أبيع ولو قدما واحدة من البلاد، لأنها ليست لي، بل لشعبي. لقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا. لقد حاربت كتيبتنا في سورية وفلسطين، وقتل رجالنا الواحد بعد الآخر في بلفنة لأن أحدا منهم لم يرض بالتسليم، وفضلوا أن يموتوا في ساحة القتال.

الامبراطورية العثمانية ليست لي، وإنما للشعب العثماني، لا أستطيع أبدا أن أعطي أحدا أي جزء منها، ليحتفظ اليهود بملايينهم. فإذا

قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل، إنما لن تقسم إلا على جثتنا، ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان...»[1].

● لكن مقومات الشراكة «الصليبية ـ الصهيونية» كانت قد اكتملت.. وبدأ التنفيذ للمخطط القديم فانعقد المؤتمر الصهيوني الأول في «بال» بسويسرا ـ في أغسطس سنة ١٨٩٧ م.. وشارك فيه ـ مع «اليهود ـ الصهاينة» ـ ممثلون «للصهيونية ـ المسيحية».. التي أصبحت تعني: «المسيحي الذي يدعم الصهيونية».. ولقد أطلق «هرتزل» هذا اللقب ـ أول ما أطلقه ـ على المليونير السويسري «هنري دونانت» [١٨٢٨ ـ ١٩١٠ م] مؤسس منظمة «الصليب الأحمر»، والذي حضر المؤتمر الصهيوني الأول، مع عدد من رموز «المسيحية ـ الصهيونية».

وبدأت منذ ذلك التاريخ ـ الخطوات العملية والحثيثة، لإقامة المؤسسات الصهيونية العاملة ـ ضمن الشراكة «الصليبية ـ الإمبريالية» ـ على إقامة الاستيطان الصهيوني في أرض فلسطين وتحويلها إلى قاعدة للهيمنة الغربية على الشرق الإسلامي من جديد.

● وفي مايو سنة ١٩١٦ م قررت الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية ـ في اتفاقية «سيكس ـ بيكو» ـ تقسيم ووراثة وتوزيع المشرق العربي بين هذه الإمبراطوريات.

---

(١) [ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية] جـ١ ص ٦٦ طبعة القاهرة ـ هيئة الاستعلامات ـ بدون تاريخ.

● وفي العام التالي - في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ م - صدر وعد «جيمس بلفور» [١٨٤٨ - ١٩٣٠ م] وزير الخارجية الانجليزي، للحركة الصهيونية - ممثلة في المليونير الصهيوني «لورد روتشيلد» [١٨٤٥ - ١٩٣٤ م] بإقامة الوطن القومي لليهود على أرض فلسطين.. وهو الوعد الذي جاء فيه:

«وزارة الخارجية.

في الثاني من نوفمبر سنة ١٩١٧ م.

عزيزي اللورد روتشيلد.

يسرني جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالته، التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود والصهيونية، وقد عرض على الوزارة وأقرته:

«إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق او الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى».

وسأكون ممتنا إذا ما أحطتم الاتحاد الصهيوني علما بهذا التصريح.

المخلص: ارثر بلفور...»[1].

---

(١) المصدر السابق، جـ١ ص ٢٨٥.

وفى هذا التصريح تم الاعتراف باليهود «شعبا» له كل حقوق الشعوب فى أوطانها.. وتم التأكيد على الحقوق السياسية لليهود فى أى مكان يعيشون فيه.. بينما أشير إلى «الشعب الفلسطينى» بلفظ «الطوائف غير اليهودية» مع إغفال الإشارة إلى «حقوقهم السياسية» والاكتفاء بالإشارة إلى «حقوقهم المدنية والدينية» فقط لاغير!!..

● وتسارعت وتائر التنفيذ لمخطط الاغتصاب «الصليبى- الصهيونى» للقدس وفلسطين.. فقام الجيش الإنجليزى باحتلال فلسطين، ودخول القدس سنة ١٩١٧م.. وعندما دخلها الجنرال الإنجليزى «اللنبى» [١٨٦١-١٩٣٦م] قال كلمته الشهيرة: «اليوم انتهت الحروب الصليبية»!.

● ولم يكن «اللنبى» وحده الذى أفصح- فى القرن العشرين- عن حقيقة الروح الصليبية القديمة والدفينة والتى تحرك وتقود الجيوش الاستعمارية الغربية- حتى فى عصر «الحداثة» و«العلمنة»!.

فمجلة «بنش» punch- الإنجليزية- نشرت- يومئذ- رسما «كاريكاتوريا» «لريتشارد قلب الأسد» [١١٥٧-١١٩٩م]- الملك الصليبى الذى حارب صلاح الدين الأيوبى [٥٣٢-٥٨٩هـ/ ١١٣٧- ١١٩٣م] وكتبت- على لسانه- تحت الرسم: «أخيرا تحقق حلمى»!.. وفوق الصورة عنوان: «آخر حملة صليبية»!.

أما الجنرال الفرنسى «جورو» [١٨٦٧-١٩٤٦م] فإن العلمانية

الفرنسية المتوحشة لم تمنعه ـ عندما دخل على رأس جيشه إلى دمشق سنة ١٩٢٠ م ـ من أن يذهب إلى قبر صلاح الدين الأيوبي، فيركله بقدمه ويقول: «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين»!!.

• وفي سنة ١٩٢٢م أقرت «عصبة الأمم» الانتداب البريطاني على فلسطين، لوضع «وعد بلفور» ـ بواسطة الاستعمار ـ في الممارسة والتطبيق..

وكان الوجود اليهودي ـ البشري والاستيطاني ـ قد بدأ في التزايد على أرض فلسطين، رغم الموقف الرسمي للدولة العثمانية وسلطانها عبد الحميد الثاني.. فبفعل النفوذ الاستعماري المتزايد.. ومن ثغرات فساد الإدارة العثمانية، أخذ هذا الوجود اليهودي في التسلل إلى فلسطين.

فمشروع المليونير اليهودي الإنجليزي «حاييم مونتفيوري» [١٧٨٤ ـ ١٨٨٥ م] الاستيطاني، الذي رفضته دولة محمد علي باشا سنة ١٨٣٩ م.. تم تنفيذه سنة ١٨٤٥م، بعد معاهدة لندن سنة ١٨٤١ م التي أجبرت محمد علي باشا على سحب الجيش المصري من الشام وفلسطين.

وبعد أن كان الوجود اليهودي على أرض فلسطين سنة ١٨٣٧ م لا يتعدى ثمانية آلاف يهودي، ضعفاء متفرقين.. ارتفع عددهم سنة ١٨٥٢ م إلى ١٣٠٠٠ نسمة ـ أي ٤٪ من سكان فلسطين..

وعند قيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م كان عدد اليهود في

فلسطين ٦٠٠٠٠ نسمة، لا يحمل الجنسية العثمانية منهم سوى ٣٩٠٠٠ نسمة. والباقون زوار ومقيمون غير شرعيين!.. وكان تعداد العرب الفلسطينيين. يومئذ. ٦٨٣٠٠٠ نسمة.

وبعد وعد بلفور.. والاستعمار الإنجليزى.. ورعاية هذا الاستعمار هجرات اليهود الصهاينة إلى فلسطين.. زاد عدد اليهود فى فلسطين من ٥٥٠٠٠ نسمة سنة ١٩١٨م إلى ٦٤٦٠٠٠ نسمة سنة ١٩٤٨م. أى زادت نسبتهم من ٨٪ إلى ٣١٪ من سكان فلسطين.

أما ملكية اليهود فى أرض فلسطين، فإنها قد ارتفعت من نصف مليون دونم. أى ٢٪ من أرض فلسطين. سنة ١٩١٨م، لتصل سنة ١٩٤٨م إلى ١,٨٠٠,٠٠٠ دونم. أى ٦,٧٪ من أرض فلسطين.

● لكن قرار التقسيم الذى أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة بضغط الحكومات الاستعمارية. القرار ١٨١ فى نوفمبر سنة ١٩٤٧م. قد أعطى اليهود. الذين يملكون ٦.٧٪ من الأرض. ٥٤٪ من أرض فلسطين!!.. وترك للعرب. الذين يملكون ٩٣.٣٪ من الأرض ٤٥٪ من الأرض. وأبقى ١٪ هى مساحة القدس التى أراد هذا القرار تدويلها!!.

● ولم يقف أمر الشراكة «الصليبية. الصهيونية» عند هذه الحدود.. فبالدعم غير المحدود للكيان الصهيونى الذى قام رسميا

فى مايو سنة ١٩٤٨ م، وبالعدوان الصهيونى، المتكرر والمحمى عسكريا وسياسيا من القوى الاستعمارية الكبرى.. غدت كل فلسطين فى قبضة الاغتصاب الصهيونى، وأصبح هذا الكيان «وكيل» الامبريالية الغربية فى احتلال الشرق الإسلامى.. وضرب مشاريع التقدم والنهوض للعرب والمسلمين!.

ـ ٥ ـ

الصليبية البروتستانتية الأمريكية

ولأن البروتستانتية الأمريكية سيقدر لها أن تلعب الدور الأول والأكبر والأخطر فى دعم الاغتصاب الصهيونى للقدس وفلسطين، فلا بد من وقفة خاصة أمام دور البعد الدينى والتراث التوراتى فى تكوين ثقافة هذه البروتستانتية وسياستها إزاء هذه القضية.. هذا البعد الذى جعل هذه البروتستانتية «المقاتل الأول.. والأشرس» فى سبيل تمكين اليهود من هذا الاغتصاب.

وفى هذا المقام، علينا أن ننبه إلى حقيقة أنه ليس هناك «فكر» مجرد عن «المصلحة».. كما أنه ليست هناك «مصالح» تسير وحدها عارية من «الأفكار والفلسفات والعقائد والأيديولوجيات..» فالمصالح لا تتحقق بذاتها دون عقائد وأفكار وفلسفات وحتى ديانات تحفز الناس على تحقيق هذه «المصالح».. فجميع «الصراعات.. والنزاعات.. والحروب» التى يبتغيها أصحابها تحقيق «مصالحهم»، لا بد لها من «عقائد» صراعية وقتالية تعبئ الأطراف المتصارعة وتشحنهم وتحشدهم للقتال أو الصراع أو التدافع الذى يحقق هذه «المصالح» المبتغاة من وراء هذه الصراعات.

● ولقد رأينا فى العقيدة الصليبية الكاثوليكية، التى حركت وجهزت الحملة الصليبية التى قادها «كريستوفر كولمبس» [١٤٥١ـ ١٥٠٦ م]ـ عقب إسقاط «غرناطة» سنة ٨٩٧ هـ ـ سنة ١٤٩٢ م ـ كيف أن وجهتها الأصلية كانت الالتفاف حول العالم الإسلامى، والذهاب إلى جزر الهند الغربية، لتحويل التجارة العالمية إلى طريق «رأس الرجاء الصالح» بعيدا عن طرقها التى تمر بالعالم الإسلامى، وذلك لإضعاف العالم الإسلامى اقتصاديا ولتحقيق الفوائض المالية للصليبية الكاثوليكية، كى تبدأ حملة عسكرية صليبية جديدة للاستيلاء على القدس وفلسطين من جديد!.

فلما ضل «كولمبس» طريقه، وذهب إلى أمريكا، وجمع «الذهب الكثير»، عاد فطلب من البابا «اسكندر السادس» [١٤٩٢ـ ١٥٠٣م]، ومن ملكى إسبانيا «فرديناند» [١٤٧٩ـ ١٥١٦ م] و«إيزابيلا» [١٤٧٤ـ ١٥٠٤ م] البدء بتحقيق الهدف الدينى ـ اغتصاب القدس وفلسطين ـ والذى سيدر، هو الآخر ذهبا وسمنا وعسلاـ بتعبير بابا الحملات الصليبية الأولى «أوربان الثانى» [١٠٨٨ـ ١٠٩٩م] فى سنة ١٠٩٥ م. فللاستيلاء على الذهب والسمن والعسل والمغانم والخزائن ـ أى «المصالح» لا بد من «العقائد.. والأفكار.. والفلسفات والأيديولوجيات» التى تحشد الناس إلى ميادين القتال فى سبيل هذه «المصالح» وهو ما يسمى، فى كل جيوش العالم، بـ «العقيدة القتالية» فى الصراع.

«فالعقائد.. والأفكار» ضرورة لازمة لتحقيق «المصالح».. ثم إن

تحقق هذه «المصالح» يعود بدوره لإنتاج «أفكار.. وأيديولوجيات» تساعد على ترسيخ «المصالح» والحفاظ عليها، فهي علاقة «جدلية.. وعضوية» قائمة - دائما وأبدا - في جميع الصراعات، بين «المصالح» وبين «العقائد.. والأفكار».

● وفي «الحالة الأمريكية»، فلقد انطلق «البيوريتانيون» puritans البروتستانت الذين مثلوا جيل الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية، الذين أبادوا شعوب وحضارات هذه القارة، انطلقوا إلى تحقيق «مصالحهم» وأهدافهم في اغتصاب الأرض وثرواتها من الرؤية التوراتية التي جعلت من إبادة العبرانيين القدماء لشعوب أرض كنعان - فلسطين - أمرا إلهيا، وتكليفا دينيا من الرب «يهوه» إلى «يوشع بن نون» والعبرانيين القدماء.

لقد انطلق هؤلاء «البيوريتانيون» من هذه الثقافة التوراتية - التي جعلتها البروتستانتية عقيدتهم المقدسة - فرأوا في غزوهم للقارة الأمريكية «خروجا» من أوربا إلى أمريكا، يعيد إحياء «الخروج» العبراني القديم من أرض مصر إلى أرض كنعان.. ومن ثم يعيد هذا الخروج الجديد «إنجاز الإبادة»، المأمور بها دينيا!، التي حققها العبرانيون لشعوب أرض كنعان.. يعيد هذا الخروج «البيوريتاني» إنجاز هذا الإبادة على أرض القارة الأمريكية في القرن السابع عشر للميلاد!.

لقد كانوا يتعبدون بما كتب في سفر الخروج على لسان الرب،

إذ يقول لموسى عليه السلام: «اكتب تذكارا فى الكتاب، وضعه فى مسامع يوشع: فإنى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء» - اصحاح ١٤:١٧.

وكانوا يتعبدون بما كتب فى سفر التثنية من أمر الرب للعبرانيين القدماء بإبادة الشعوب السبعة - أو العشرة - فى أرض كنعان: القينيين، والقنزيين، والقدمونيين، والحيثيين، والفرزيين، والرفائيين والعموريين، والكنعانيين، والجرجاشيين، واليبوسيين - وذلك لتصبح كنعان أرضا بلا شعب، فيسكنها شعب بلا أرض!.

«سبعة شعوب دفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرّمهم - [تهلكهم] -. لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق عليهم. ولا تصاهرهم.. لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك. لا تشفق عيناك عليهم» إصحاح٧: ١-٣، ٦، ٧، ٤١، ١٦-.

وكانوا يؤمنون، كذلك، ويتعبدون بما كتب فى سفر العدد من أوامر الرب للعبرانيين القدماء: «إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان. فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم.. تملكون الأرض وتسكنون فيها.. وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكا فى أعينكم ومناخس فى جوانبكم ويضايقونكم فى الأرض التى أنتم ساكنون فيها..!» - إصحاح ٢٣: ٥٠-٥٣، ٥٥.

كان هؤلاء «البيوريتانيون» ـ الآباء البروتستانت المؤسسون للولايات المتحدة الأمريكية ـ يؤمنون بهذا الذى كتب فى أسفار العهد القديم «عقيدة» حشدت العبرانيين القدماء ـ بقيادة يوشع بن نون» ـ لإبادة شعوب أرض كنعان ـ فلسطين ـ حتى تكون أرضا بلا شعب، فتكون ملكا لهؤلاء العبرانيين، الذين خرجوا من مصر شعبا بلا أرض!.

وانطلاقا من هذه الثقافة التوراتية.. وحتى يبرر هؤلاء «البيوريتانيون» لأنفسهم إبادة شعوب القارة الأمريكية وحضاراتها، اعتبروا غزوهم لأمريكا «خروجا عبرانيا جديدا» يقومون فيه بما قام به العبرانيون الأولون فى خروجهم القديم.. ويقيمون به المجتمع العبرانى الجديد على أرض أمريكا!.

ولقد أفضت هذه العقائد التوراتية بالبروتستانت الأمريكان، الذين أقاموا «كنعان الجديدة».. والقدس الجديدة» على أرض أمريكا، إلى احتضان اليهود المهاجرين إلى أمريكا، فأقاموا معهم علاقات حميمة، على حين كانت علاقاتهم سيئة مع الكاثوليك!.. بل ومكنوا اليهود من إقامة معابدهم فى الأرض الجديدة، قبل أن يسمحوا ببناء الكنائس للكاثوليك!.

* * *

وبعد أن أنجزت هذه الثقافة التوراتية مهامها فى القيام بدور «عقيدة» الغزو البروتستانتى للقارة الأمريكية، أخذت تتحول إلى

ميدان آخر، وهو التبرير والتغليف لتطلعات أمريكا الاستعمارية في الشرق الإسلامي، وذلك باستخدام الأقليات اليهودية قاعدة ارتكاز لتحقيق «المصالح الاستعمارية» ولتحقيق «الأساطير البروتستانتية» حول عودة المسيح عليه السلام. كما صنعت البروتستانتية الإنجليزية في هذا الميدان.

فبهذه العقيدة التوراتية، برر «البيوريتانيون» البروتستانت «خروجهم» إلى أمريكا وإبادتهم لشعوب الهنود الحمر.

وبهذه العقيدة التوراتية، أخذت أمريكا الاستعمارية تعمل على إعادة اليهود إلى الشرق الإسلامي لتحقق بواسطتهم الدولة اليهودية، التي تكون قاعدة للهيمنة الأمريكية على العالم الإسلامي، والتي تقيم الهيكل اليهودي على أنقاض المسجد الأقصى، حتى ينفتح الطريق لتحقيق الأساطير البروتستانتية في عودة المسيح - عليه السلام - كي يحكم الأرض ألف سنة سعيدة؛ وفق التفسير «الحرفي» لأسطورة «رؤيا يوحنا»!.

لقد سبق لمارتن لوثر [١٤٨٣ - ١٥٤٦م] تحديد العقائد التي جعلت التراث اليهودي مقدسا لدى البروتستانت.. والتي ربطت البروتستانت باليهود.. عقائد:

١ - أن اليهود هم شعب الله المختار.

٢ - وأن ثمة ميثاقا إلهيا يربط اليهود بالأرض المقدسة في فلسطين.

٣ - وربط الإيمان المسيحي بعودة المسيح - في العقيدة الألفية - بقيام دولة صهيون.

ثم جاءت البروتستانتية الأمريكية - في مرحلة التطلعات الاستعمارية لدولتها - لتجعل من هذه العقائد - التي تربط بين اليهود وفلسطين برباط إلهي - والتي تجعل إعادة اليهود إلى فلسطين الشرط والمقدمة الضرورية لعودة المسيح - عليه السلام - .. جاءت هذه البروتستانتية الأمريكية لتجعل من هذه «العقائد» الثقافة والأيديولوجية «المسيحية - الصهيونية»، التي تجعل من إقامة الكيان الصهيوني على أرض القدس وفلسطين، الأداة الاستعمارية، لإقامة قاعدة استيطانية في قلب الشرق الإسلامي، لتحقيق «مصالح» الهيمنة الاستعمارية .. ولتحقيق «عقائد .. وأساطير» هذه البروتستانتية في آن واحد!.

وفي نص بالغ الأهمية، ومتميز بالحيادية والموضوعية، النابعتين من ثقافة كاتبه - العقيدة الأرثوذكسية .. والوعي السياسي الوطني والحضاري - .. يتحدث الباحث القبطي المصري «سمير مرقس» عن العلاقة الجدلية والعضوية بين العقائد التوراتية والأساطير البروتستانتية وبين الاستعمار البيوريتاني لأمريكا .. ثم دور هذه العقائد التوراتية في المشروع «الصليبي - الصهيوني» مشروع «المسيحية الصهيونية» - لاغتصاب القدس وفلسطين.

في هذا النص الهام، يقول الباحث «سمير مرقس»:

«لقد ذهب كثير من الباحثين إلى أن المهاجرين الجدد: البروتستانت، كانوا متأثرين باليهودية تأثرا مركبا. لاهوتيا، وتاريخيا، وكتابيا، وسياسيا،

حيث أفرز هذا التأثير صيغة «تعايش» بين البروتستانتية واليهودية بقيت إلى الآن، وبالذات في الاتجاهات والتيارات الأصولية. ويعود هذا التأثر لرؤية المستوطنين الجدد ـ البروتستانت للعالم الجديد باعتباره «القدس الجديدة»، حيث شعروا أن تجربتهم الناشئة تجعلهم مماثلين مع المنفيين والعبرانيين الذين ذكروا في التوراة، فأصبحت أمريكا لديهم «كنعان الجديدة»، فهم فروا مثل العبرانيين القدامى من عبودية «فرعون»(الملك جيمس الأول [١٥٦٦ ـ ١٦٢٥ م] ملك انجلترا) من «أرض مصر» (انجلترا) بحثا عن ملاذ في الأرض الجديدة الموعودة من الاضطهاد الديني.

وكان لهذا الشعور أثره على أرض الواقع، تمثل في الكيفية التي تعايش بها المستوطنون الجدد مع المكان، من حيث إطلاق أسماء عبرانية على الأماكن التي يفدون إليها (حبرون، وكنعان) وإطلاق أسماء عبرانية على المواليد الجدد (إبراهام، سارة، العازر..)..وفرضوا تعليم اللغة العبرية في مدارسهم وجامعاتهم، حتى أن أول دكتوراه منحتها جامعة «**هارفارد**» سنة ١٦٤٢ م كانت بعنوان «العبرية هي اللغة الأم»، وأول كتاب صدر في أمريكا «سفر المزامير»وأول مجلة صدرت حملت عنوان«اليهودي» بل وأطلقوا على نهر كولورادو الاسم التوراتي القديم «باشان»!.

يضاف إلى ما سبق، أنه سمح لليهود ببناء محافلهم الدينية في وقت مبكر، إثر هجرتهم إلى أمريكا، وتم لهم ذلك قبل أن يسمح بذلك للكاثوليك!.

لقد باتت أمريكا بالنسبة لهؤلاء البروتستانت «النموذج الروحي للعهد القديم العبري»، بل نجدهم يسمون أنفسهم «أطفال إسرائيل Childern of Israel».

ولقد وجدت في هذه البيئة أرضية مشتركة بين البروتستانتية واليهودية لم تتحقق بين البروتستانتية والكاثوليكية، وسرعان ما كان لهذه العلاقة الحميمة تجلياتها العملية، فمع بداية القرن الثامن عشر، احتلت فلسطين «كوطن لليهود» مكانة خاصة لدى البروتستانت، الأمر الذي ولد اعتقادا راسخا في اللاهوت البروتستانتي الأمريكي بضرورة «البعث اليهودي».

إن هذه العلاقة، أدت إلى أن تتضمن الثقافة البروتستانتية، في وجهها الأصولي، كثيرا من معالم اليهودية الروحية والعقائدية، ثم «الصهيونية اليهودية» لاحقا. حيث أصبح «هناك ميل بروتستانتي قوي للاعتقاد بأن مجيء المسيح المنتظر يجب أن ينتظر عودة الدولة اليهودية».

لقد مال البروتستانت إلى هذا التوجه، بل يمكن القول بأنهم اعتنقوه، وسعوا إلى ضرورة العمل من أجل الإحياء القومي للشعب اليهودي، والتقوا عمليا مع الحركة الصهيونية في مبادئها. وهذا هو مؤسس الكنيسة المرمونية القس «جوزيف سمث» [١٨٠٥ ـ ١٨٤٤ م] يتبنى نظرية البعث اليهودي في فلسطين، وتلحق به كوكبة من ألمع اللاهوتيين الإنجيليين، مثل «سايروس سكوفيلد» والقس وليم بلاكستون» [١٨٤١ ـ ١٩٣٥ م]، حيث عملوا على إنشاء مستوطنات لليهود،

مثلما فعل «وردر جريسون» الذي قام بإنشاء مستوطنة زراعية يهودية لتدريب المهاجرين اليهود على شئون الزراعة والإنتاج الزراعي».

ثم يرصد المؤرخون التحول المهم من مجرد التعاطف الوجداني والتبرير اللاهوتي إلى الضغط السياسي لتحقيق هذا الهدف الروحي ـ السياسي، ألا وهو إقامة وطن يهودي، فنجد القس «بلاكستون»يقوم بتأسيس «البعثة العبرية من أجل إسرائيل»المستمرة الآن باسم «الرسالة اليسوعية الأمريكية»، والتي تعد قلب جهاز الضغط Lobby الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية.

وهكذا اتحد الديني بالسياسي، واللاهوتي بالتاريخي، فخلق علاقة مميزة بين البروتستانتية والصهيونية اليهودية بشكل خاص، بل زاد الأمر أن تأسس ما يسمى بالصهيونية المسيحية.

لقد آمنت الصهيونية المسيحية، قبل تأسيس دولة إسرائيل بعودة اليهود كشعب إلى أرضه الموعودة في فلسطين وإقامة كيانه الوطني فيها، تمهيدًا للعودة الثانية للمسيح، وتأسيسه مملكة الألف عام. وبعد قيام إسرائيل، أخذت الصهيونية المسيحية تنظر إلى إسرائيل كحدث وإشارة تؤكد معتقداتها ...»[1]

---

(١) سمير مرقص [رسالة في الأصولية البروتستانتية والسياسة الخارجية الأمريكية] ص ٦ ـ ٨، طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م. و[الحماية والعقاب، الغرب والمسألة الدينية في الشرق الأوسط] ص ٩٩ طبعة القاهرة ٢٠٠٠م.

تلك هى الأصول والمنطلقات الدينية والفكرية والثقافية للسياسة الأمريكية وللدور الأمريكى فى المشروع الغربى لاغتصاب القدس وفلسطين.. والتى مثلت، ولا تزال تمثل العقائد الحافزة للسياسات والمواقف الأمريكية فى هذا الميدان.

وفى سياق هذا التاريخ الأمريكى إزاء هذه القضية.. قضية الصراع على القدس وفلسطين، كانت هناك العديد من «المحطات» و«المواقف» الاستعمارية.. التى نقرأ فيها ـ على سبيل المثال:

● فى سنة ١٨١٨ م طالب الرئيس الأمريكى «جون آدمز» [١٧٣٥ ـ ١٨٠٣ م] باستعادة اليهود لفلسطين، وإقامة حكومة يهودية مستقلة فيها.

● وفيما بين سنة ١٨٠٠ م وسنة ١٨٧٥ م بلغ عدد الكتب التى ألفتها ونشرتها «المسيحية ـ الصهيونية» فى أمريكا وإنجلترا وحدهما ـ أى خلال ثلاثة أرباع القرن ـ حوالى الألفين!.. دارت كلها حول فلسطين والاستعمار اليهودى لفلسطين!.

وبذلك تبلورت فى الثقافة البروتستانتية الأمريكية «العقيدة» و«الحركة».. «المسيحية ـ الصهيونية» ـ التى يعرّفها أحد القساوسة الأمريكان ـ «والتربجانز» ـ بقوله: «إن الصهيونية التوراتية، التى هى بالتأكيد آتية كل مسيحى، تتعلق، بشكل أساسى، بالله وبأهدافه ولذلك تُفهم الصهيونية، من خلال الرؤية المسيحية، على أنها جزء من اللاهوت الدينى، وليست جزءاً من السياسة. وإن دولة إسرائيل هى

مجرد البداية لما يفعله الله من أجل الشعب اليهودي ومن خلال الشعب اليهودي. إن من واجب المسيحيين دعم إسرائيل وسياستها باعتبارها إشارة إلهية لرحمة الله، واستجابة لإرادته، على أنها تشكل إشارة نورانية بأن الله منشغل جدا في قضايا هذا العالم»[1].

● وفي سنة ١٢٥٢ هـ سنة ١٨٣٦ م. حاول الأمريكان - بواسطة قنصلهم في القدس «السنيور فيللدن» - أن يشتروا قطعة أرض بالقرب من زاوية النبي داود، مستغلين في ذلك أحد رهبانهم - واسمه «جرجيس هوتين» - بحجة أنهم يريدون إقامة مدفن - في القدس - للموتى الأمريكان!..

لكن طلبهم هذا رفض، وحكم قاضي القدس بأن أرضها وقف على أهلها، فلا يجوز تملك الأجانب لأي جزء من أرض هذا الحرم الشريف[2].

● وفي سنة ١٨٦٦ م أرسلت البروتستانتية الأمريكية أولى البعثات الاستيطانية إلى أرض فلسطين، يقودها القس الأمريكي «آدم» ومعه ١٥٠ قسيسا أمريكيا.

● وفي العام التالي - سنة ١٨٦٧ م - قامت على أرض فلسطين أولى

---

(١) محمد السماك [الدين في القرار الأمريكي] ص ٢٦، ٢٧. طبعة بيروت سنة ٢٠٠٣ م.

(٢) د. أسد رستم [الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا] المجلد الثالث والرابع ص ٣٠، ٣١. طبعة الجامعة الأمريكية - بيروت.

المستوطنات الأمريكية، بمشاركة ٧٠ شخصية دينية، من المسيحيين الصهاينة!..

● وفى سنة ١٨٧٨ م قام القس الأمريكى «وليم بلاكستون» [١٨٤١ - ١٩٣٥ م] بالتنظير اللاهوتى لهذه «المسيحية - الصهيونية».. ولاغتصاب القدس وفلسطين، وذلك بكتابه [المسيح آت].. وهو الكتاب الذى ترجم إلى أربعين لغة، والذى أصبح أكثر انتشارا فى القرن التاسع عشر بعد الكتاب المقدس!.

وفى سنة ١٨٨٧ م أسس هذا القس - فى شيكاغو - منظمة «البعثة العبرية نيابة عن إسرائيل»، لحث اليهود على الهجرة إلى فلسطين.. وهى المنظمة القائمة حتى الآن، باسم «الزمالة الأمريكية اليسوعية».. العاملة بنشاط ضمن المنظمات «المسيحية الصهيونية» الساعية لهدم المسجد الأقصى وإقامة الهيكل اليهودى على أنقاضه!.

● وفى العام التالى لتأسيس هذه المنظمة - سنة ١٨٨٨ م - زار مؤسسها - «وليم بلاكستون» - فلسطين، ورفع شعار: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»!.. وذلك قبل عشر سنوات من انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول.. وقبل تأليف «تيودور هرتزل» لكتابه [الدولة اليهودية] سنة ١٨٩٦ م.

● ثم كتب «وليم بلاكستون» - فى سنة ١٨٩١ م - مذكرة جمع عليها توقيعات ٤١٣ شخصية مسيحية ويهودية كان من بينهم «جون روكفلر» [١٨٣٩ - ١٩٣٧ م] و«وليم روكفلر» [١٨٤١ - ١٩٢٢ م]..

رفعت إلى الرئيس الأمريكي «بنجامين هاريسون» [١٨٣٣ـ١٩٠١ م] تطالب بعقد مؤتمر دولي من أجل إعادة اليهود إلى فلسطين . . ولقد جاء في هذه المذكرة:

«لماذا لا تعاد فلسطين إلى اليهود ثانية؟ فعلى أساس توزيع الله للأمم فإن فلسطين هي وطنهم، إنها ملك لهم، طردوا منه بالقوة. وخلال وجودهم فيه كان وطنا غزير الثمار، وكان يؤوي الملايين من الإسرائيليين الذين أقاموا فوق تلاله ووديانه المصانع والمزارع. كانوا شعبا صناعيا وزراعيا، كما كانوا تجارا على درجة كبيرة من الأهمية. كانوا مرتكزا للدين والحضارة، فلماذا لا تبادر القوى الدولية، بموجب معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م، التي أعطت بلغاريا للبلغار، وصربيا للصرب، أن تعيد فلسطين إلى اليهود؟..»(١)

وهكذا يتم تزييف التاريخ، ويتم الحديث عن فلسطين كوطن تاريخي لليهود . . مع تجاهل أن دخولهم إلى أرض كنعان إنما كان غزوا وإبادة لأهل تلك البلاد . . وأن وجودهم فيها إنما كان عارضا . . ومفتقرا إلى التواصل التاريخي .

● وفي سنة ١٩١٨م أعلن الرئيس الأمريكي «ويلسون» [١٨٥٦ـ ١٩٢٤ م] التزام أمريكا بتنفيذ وعد بلفور، ثم صادقت أمريكا على هذا الوعد رسميا سنة ١٩٢٢م . . وقرر مجلس النواب الأمريكي

---

(١) [الدين في القرار الأمريكي] ص ٣٣، ٣٤ .

ضرورة «منح اليهود الفرصة التي حرموا منها لإعادة إقامة حياة يهودية وثقافية خاصة في الأرض اليهودية القديمة»!.

وتوالى تأسيس المنظمات الأمريكية، الداعية والداعمة لتهويد القدس وفلسطين، لإقامة قاعدة الهيمنة الاستعمارية في الشرق الإسلامي.

● ومع تراجع نفوذ الامبراطوريات الاستعمارية القديمة - الإنجليزية.. والفرنسية - في الشرق الإسلامي.. وحلول النفوذ الاستعماري الأمريكي محله، أصبحت الرعاية والقيادة للمشروع الصهيوني بيد «المسيحية - الصهيونية» الأمريكية، والحكومات الأمريكية المؤمنة بهذه «الأيديولوجية».

ففي إدارة الرئيس الأمريكي «روز فلت» [١٨٥٨ - ١٩١٩ م] أصبح اليهود - الذين يشكلون أقل من ٣٪ من سكان أمريكا، يشغلون ١٥٪ من المناصب القيادية القابضة على المواقع الحساسة في الإدارة والدولة الأمريكية[١].

● وتحولت «المسيحية - الصهيونية» إلى العقيدة التي يؤمن بها العديد من رؤساء أمريكا، والتي تحرك وتحدد اتجاهات قرارات دولتهم تجاه الاغتصاب الصهيوني للقدس وفلسطين.

- فالرئيس «ليندون جونسون» [١٩٠٨ - ١٩٧٣] يخطب في ١٠ سبتمبر سنة ١٩٦٨ م أمام إحدى المنظمات اليهودية فيقول:

---

(١) المرجع السابق. ص ٨١.

«إن لأكثركم،إن لم يكن لجميعكم، روابط عميقة مع أرض ومع شعب إسرائيل، كما هو الأمر بالنسبة إليّ. ذلك لأن إيماني المسيحى انطلق من إيمانكم. إن القصص التوراتية محبوكة مع ذكريات طفولتى. كما أن الكفاح الشجاع الذى قام به اليهود المعاصرون من أجل التحرر من الإبادة منغمس فى نفوسنا»!.

ونحن نلاحظ أنه يقول هذا، ويتحدث عن «الكفاح الشجاع لليهود المعاصرين فى سبيل التحرر»، بعد ثلاثة أشهر من عدوان إسرائيل فى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ م.. والذى احتلت فيه - بدعم أمريكى سخى - كل القدس وبقية فلسطين.. وكل سيناء المصرية، وأرض الجولان السورية!!.

- والرئيس الأمريكى «جيمى كارتر» [١٩٢٤ - م] - الذى يعتنق عقيدة «الولادة الثانية» Born again يعترف بأن مشاعره المؤيدة للصهيونية كانت الحافز الذى صاغ سياسته فى الشرق الأوسط.. ويقول، فى خطاب ألقاه فى الأول من مايو سنة ١٩٧٨م:

«إن العودة إلى أرض التوراة التى أُخرج منها اليهود منذ مئات السنين، وإن إقامة الأمة الإسرائيلية فى أرضها: هو تحقيق لنبوءة توراتية، وهى تشكل جوهر هذه النبوءة»!.

وهو هنا يتحدث عن «أرض التوراة» - من النيل إلى الفرات - فى ذات الوقت الذى كان يقود فيه مفاوضات «سلام كامب ديفيد».. والتى لم يتجاوز إطارها، بالنسبة للشعب الفلسطينى، حدود «الحكم الذاتى» كجالية تعيش على أرض إسرائيل التوراتية!!.. وهو نفس

الإطار الذى حدده وعد بلفور: «الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية المقيمة الآن بفلسطين»!! . فأساطير التوراة عن الوعد الإلهى بأرض ما بين النيل والفرات هى مرجعية «المسيحية ـ الصهيونية»، سواء أكان رموزها فى انجلترا أم فى أمريكا!!.

ـ أما الرئيس «رونالد ريجان» [١٩١١ ـ ٢٠٠٤ م] فلقد ربته أمه «نيل Nell» على العقيدة «المسيحية ـ الصهيونية» فأصبح يعيش هاجس معركة «هرمجيدون» ـ [نسبة إلى سهل مجيدو، بين القدس ويافا] ـ والتى سيعود عندها المسيح ليحكم العالم ألف سنة سعيدة، بعد حشد اليهود فى فلسطين، وإقامة «الهيكل» على أنقاض المسجد الأقصى وإبادة المسلمين ولقد قال «ريجان» هذا ـ فى سنة ١٩٨٤ م:

«إننى أعود إلى النبوءات القديمة المذكورة فى العهد القديم، وإلى المؤشرات حول هرمجيدون، فأتساءل بينى وبين نفسى: ما إذا كنا الجيل الذى سيرى تحقق ذلك؟ لا أعرف ما إذا كنت لاحظت.. [يحدث مراسل «واشنطن بوست»] معى أيًا من هذه النبوءات مؤخرا؟. ولكن، صدقنى إنها ـ أى النبوءات ـ تصف بالتأكيد ما نمر به الآن»[(١)].

ولذلك، لم يكن غريبا أن يحتل غلاة الصهاينة المناصب الخطيرة والحساسة والمؤثرة فى «أمن العالم» فى إدارة الرئيس «ريجان»..

---

(١) المرجع السابق. ص ٤١، ٤٢.

فوزير العدل هو «أدمس» . . ووزير الدفاع هو «كاسبر ويتبرجر» . . ووزير الداخلية هو «جيمس وات» . . لقد كانوا ـ مع الكثيرين من القابضين على المناصب الحساسة والمؤثرة من غلاة «المسيحيين ـ الصهاينة» في أمريكا . .

● وفي عهود هؤلاء الرؤساء الأمريكيين، تعاظم نفوذ قساوسة «المسيحية ـ الصهيونية»، إلى درجة غير مسبوقة، على الثقافة والفكر والإعلام في أمريكا، وانعكس ذلك بدوره على السياسة الأمريكية تجاه الاغتصاب الصهيوني للقدس وفلسطين.

ـ فالصهيونية ـ المسيحية أصبحت تملك وتشرف ـ في أمريكا ـ بشكل مباشر ـ على ١٠٠ محطة تلفزة كبرى . . وعلى ١٠٠٠ محطة إذاعية . . ويعمل في إطار التبشير بكنائسها ٨٠٠٠٠ قسيس . . وهي دائمة التوسع والانتشار، حتى أنه تم إنشاء ٢٥٠ مؤسسة وجمعية دينية مؤيدة لإسرائيل ـ في أمريكا ـ إبان عقد الثمانينيات من القرن العشرين وحده![1].

وتتراوح التقديرات لعدد أتباع هذه الكنائس «المسيحية ـ الصهيونية» ما بين الخمسين مليونا والمائة مليون من الأمريكان!.

---

(١) جريس هالسل [يد الله] ص ١٥ . ترجمة: محمد السماك . طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م . وانظر للمؤلفة أيضا [النبوءة والسياسة] ترجمة: محمد السماك . طبعة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ـ ليبيا سنة ١٩٨٩م . وانظر كذلك: د. يوسف الحسن [البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي ـ الصهيوني ـ دراسة في الحركة المسيحية الأصولية الأمريكية . طبعة مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت سنة ١٩٩٠م.

ويكفى فى الإشارة إلى النفوذ المتعاظم لقساوسة هذه الحركة، أن نعرف أن واحدا منهم ـ وهو «بات روبرتسون» ـ قد أنشأ سنة ١٩٦٠ م محطة التلفزة C. B. N بموازنة سنوية تبلغ ١٩٥ مليونا من الدولارات .. وهى تعد «أكبر أبرشية فى العالم» إذ تقدم برامجها بإحدى وسبعين لغة، ويتوزع المشتركون فيها على ١٨٠ دولة.. ويقدر عدد مشاهدى البرنامج الأسبوعى لصاحبها ـ القس بات روبرتسون ـ برنامج «نادى السبعمائة» بحوالى سبعة ملايين مشاهد فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها!..

كما أنشأ «بات روبرتسون» هذا ـ سنة ١٩٨٩ م «منظمة التحالف المسيحى» التى تضم ١,٩ مليون عضو، لمساعدة مرشحى الرئاسة الأمريكية، وأعضاء الكونجرس.. ونفوذ هذه المنظمة نفوذ كبير على هذه المؤسسات الحاكمة للقرار الأمريكى..

ولقد كانت هذه المنظمات والمؤسسات وراء ترشيح ونجاح الرئيس الأمريكى «بوش ـ الصغير» فى انتخابات سنة ٢٠٠٠ م.

والقس «روبرتسون» هذا هو الذى «ينتظر اللحظة التى ستتولى فيها محطته «التلفازية» نقل وقائع نزول المسيح فوق جبل الزيتون ـ بالقدس»!!..

وهو ـ لذلك ـ كان يجلس إلى جوار الجنرال «موشى ديان [١٩١٥ ـ ١٩٨١]» ـ وزير الدفاع الإسرائيلى بدبابته لحظة دخوله إلى القدس العربية فى يونيو سنة ١٩٦٧ م!.. كما كان زميله ـ «القس

جيرى فولويل» ـ إلى جوار الجنرال «أرييل شارون» ـ وزير الدفاع الإسرائيلى فى دبابته عند احتلال بيروت سنة ١٩٨٢[١] . . فنحن أمام قساوسة مقاتلين بالأساطير، يدعمون الجنرالات المقاتلين بالسلاح لتحقيق هذه الأساطير!!.

● ولقد ذكرت إحدى الإحصائيات أن عدد المحطات الدينية التى تملكها كنائس «المسيحية ـ الصهيونية» فى أمريكا «العلمانية»! ـ قد بلغ ١٤٠٠ محطة، يعمل فيها ٨٠,٠٠٠ قسيس إنجيلى، يؤمنون ويبشرون بأن إسرائيل تمثل تجليا إلهيا، وتجسيداً لنعمة الله من أجل خلاص البشر! . . فالخلاص الحقيقى والكامل ـ فى هذه «الأيديولوجية» سيأتى بعودة المسيح ـ العودة الألفية المنتظرة ـ وهى متوقفة على اكتمال المشروع الصهيونى لاغتصاب القدس وفلسطين! . .

كما يؤمن هؤلاء «المسيحيون ـ الصهاينة» بأن كل القوانين الدولية ـ لأنها بشرية ووضعية ـ لا يجوز تطبيق أى منها على هذا «الكيان الإلهى» ـ إسرائيل ـ لأن إسرائيل كيان مختلف عن كل الكيانات السياسية الأخرى فى العالم، من حيث إن وجودها هو تجسيد لإرادة إلهية، وليس استجابة لحاجة إنسانية . . فما يطبق على إسرائيل هو «الإرادة الإلهية» الواردة فى الكتب المقدسة وأبرزها وعد الله لشعبه المختار . . وليس قرارات المنظمات الدولية! . .

---

(١) [الدين فى القرار الأمريكى] ص ٤٥، ٤٦، ٥٠.

وبهذا يتضح - أيضا - البعد الديني «للفيتو الأمريكي»، الذي كاد أن يكون وقفا - في مجلس الأمن - على حماية الكيان الصهيوني من قرارات الشرعية الدولية، وجعل هذا الكيان «معصوما» من الخضوع لإرادة المجتمع الدولي! . .

● ومع تعاظم هذا النفوذ «للمسيحية - الصهيونية» على الإدارة الأمريكية، مرقت هذه الإدارة من كل القوانين والقرارات التي صدرت عن المنظمات الدولية بخصوص الصراع على القدس وفلسطين . . فقرر الكونجرس الأمريكي - في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٩٥ م - اعتبار القدس عاصمة أبدية لإسرائيل، لأنها - كما قال «الوطن الروحي لليهودية»! . . مع أن اليهودية - وهي شريعة موسى، عليه السلام - ليس لها أية علاقة بالقدس وفلسطين! . .

وشرعت الحكومة الأمريكية - بناء على هذا القرار - في بناء سفارتها بالقدس، على أرض هي في الأصل مملوكة للوقف الخيري الإسلامي! .

ثم جدد الكونجرس هذا القرار في سبتمبر سنة ٢٠٠٢ م - في ظل إدارة الرئيس «بوش - الصغير» - الذي وقع على هذا القرار، ملغيا بذلك كل القرارات التي أصدرتها المنظمات الدولية . . بل وحتى المواقف الأمريكية! . . وضاربا عرض الحائط بكل القوانين الدولية المتعلقة بوضع الأراضي المحتلة! . .

* * *

● ولأن الإسلام والمسلمين هم الخصوم ـ والضحايا ـ لمخططات «المسيحية ـ الصهيونية» لاغتصاب القدس وفلسطين.. بل والضحايا الذين تتحدث هذه «العقيدة ـ الأسطورية» عن إبادتهم في معركة «هرمجيدون»، التي ستفتح الباب لعودة المسيح.. لذلك أصبحت حملة «المسيحية ـ الصهيونية» على الإسلام ـ وخاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م في أمريكا ـ تجليا من تجليات قساوسة هذه «المسيحية ـ الصهيونية» وساستها ومؤسساتها الفكرية والإعلامية.. وهي الحملة التي تحارب الإسلام، لأنه ـ برأيها ـ الخطر على أمريكا وإسرائيل!..

ـ فالقس «بات روبرتسون» هو القائل:

«إن الدين الإسلامي دعا إلى العنف.. وإن أمريكا بحاجة إلى إنذار ضد خطر المسلمين الذين يكرهون أمريكا ويحاولون تدمير إسرائيل»[١]..

ـ والقس «فرانكل جراهام» ـ وهو الأب الروحي للرئيس «بوش ـ الصغير».. والذي ترأس حفل تنصيب «بوش» رئيسا.. والذي يقول عنه بوش: «إنه هو الذي غرس في قلبي بذور الإيمان، فتوقفتُ عن تعاطي المسكرات، واعتنقت المسيح».. فرانكل جراهام هذا هو القائل عن الإسلام:

---

(١) صحيفة [الشرق الأوسط] ـ لندن ـ في ٣ـ٣ـ٢٠٠٢م. وصحيفة [الحياة] ـ لندن في ٢٦ـ٢ـ٢٠٠٢م.

«إن الإسلام دين شيطانى وشرير.. وهو دين الإرهاب.. وإن الفرق بين الإسلام والمسيحية هو كالفرق بين الظلام والنور.. وإن المسلمين الأمريكيين ينظمون خلايا إرهابية لتدمير الولايات المتحدة الأمريكية، وهم - أيا كانت أصولهم - أعداء للديمقراطية والليبرالية ولطريقة الحياة الأمريكية»[1].

- والقس «جيرى فاين» هو الذى وصف رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - فى مؤتمر المحفل المعمدانى الجنوبى، الذى عقد فى «فلوريدا» سنة ٢٠٠٢م. «بأنه الشيطان نفسه» وقال عن الإسلام: «إنه دين مزور»[2]!

- والقس «هول لندسى» هو القائل:

«إن المسلمين لا يريدون فقط تدمير دولة إسرائيل، ولكنهم يريدون تدمير الثقافة اليهودية - المسيحية، التى تشكل أساس الحضارة الغربية. وإنهم كالشيوعيين، فى أعماق فلسفتهم توق شديد لدفننا جميعا»[3].

- ووزير العدل الأمريكى «جون أشكروفت» - وهو من غلاة «المسيحيين - الصهاينة» .. ووالده من قساوسة هذه الحركة - هو القائل:

---

(١) [الدين فى القرار الأمريكى] ص٥٩، ٦٠، ٨٩.

(٢) المرجع السابق. ص ٦٠، ٦١

(٣) المرجع السابق. ص ٦٠.

«إن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل هذا الإله»![1]..

فهو ـ مع أنه وزير «للعدل» ـ يسب إله المسلمين!.

ـ أما الجنرال الأمريكي «وليم ج. بويكن» ـ مساعد وزير الدفاع ـ فهو الذي خطب في الكنائس المسيحية الصهيونية ـ وهو مرتد الزيه العسكري ـ فقال:

«إن إلهنا أكبر من إله المسلمين.. إن إلهنا حقيقي، وإله المسلمين صنم.. وإنهم يكرهون الولايات المتحدة الأمريكية لأنها أمة مسيحية ـ يهودية، وإن حربنا معهم هي حرب على الشيطان[2]!..

ـ وحتى الفكر الاستراتيجي ـ فكر صناعة القرار السياسي ـ انخرط هو الآخر في هذه الحملة الصليبية الساعية إلى مسخ الإسلام، وجعله «إسلاما أمريكانيا» يحقق مقاصد «المسيحية ـ الصهيونية» في اغتصاب القدس وفلسطين والهيمنة الأمريكية على مقدرات عالم الإسلام.

وكنموذج ـ مجرد نموذج ـ على هذا الفكر الاستراتيجي.. كتب «فوكوياما» يقول:

---

(١) صحيفة [الشرق الأوسط] لندن ٢١ـ ٢ـ ٢٠٠٢م.

(٢) صحيفة [الحياة] ـ لندن ـ في ١٧ ـ ١٠ ـ ٢٠٠٣م. وصحيفة [الأهرام] ـ القاهرة ـ في ١٨ ـ ١٠ ـ ٢٠٠٣م.

«نريد حربا داخل الإسلام.. حتى يقبل الإسلام الحداثة الغربية.. والمبدأ المسيحى: فصل الدين عن الدولة.. فالإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فى العالم التى لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة الغربية.. وهو يرفض، لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة: العلمانية نفسها..

وإن الصراع الحالى ليس ببساطة معركة ضد الإرهاب، وليس سببه السياسة الأمريكية فى فلسطين والعراق.. وإنما هو صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التى تقف ضد الحداثة الغربية.. إنه تحدٍّ أيديولوجى أكثر أساسية فى بعض جوانبه من الخطر الشيوعى..

وإن التطور الأهم ينبغى أن يأتى من داخل الإسلام نفسه، ليصل إلى وضع سلمى مع الحداثة، وخاصة المبدأ الأساسى: الدولة العلمانية..»[1].

* * *

● وإذا كان كل هذا ـ وغيره كثير وكثير جدا ـ قد تم فى ظل الحملة الصليبية الأمريكية على الإسلام والتى أعلن عنها ـ ولا نقول بدأها «جورج بوش ـ الصغير» فى ١٦ سبتمبر سنة ٢٠٠١ م. . فإن قساوسة «المسيحية ـ الصهيونية» قد رأوا فى هذه الحرب التى قادتها أمريكا

(١) [نيوزويك] ـ الأمريكية ـ العدد السنوى ـ ديسمبر سنة ٢٠٠١ م: فبراير سنة ٢٠٠٢م.

على العراق ـ فى مارس سنة ٢٠٠٣ م ـ تحقيقا لأمن إسرائيل ومن ثم شرطا من شروط تحقيق النبوءات الدينية التوراتية لعودة المسيح ـ عليه السلام ـ . بل لقد رأوا فى هذه الحرب تحقيقا لإحدى نبوءات التوراة.. وفى ذلك يقول القس «دافيد بريكنر»:

«إننا نعرف أن تدمير بابل ـ الذى ورد فى الإصحاح ١٨ يعنى تدمير العراق!!..

كما يقول القس «تشارلز داير» أستاذ اللاهوت فى جامعة «دالاس»:

«إن إصحاح إشعيا ١٣ يشير إلى قيام صدام حسين، وإلى غزوه للكويت، وذلك لإقامة قاعدة للهجوم على إسرائيل. فصدام هو خليفة «نبوخذ نصر» [٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق. م] (الذى هزم الإسرائيليين وسباهم إلى بابل ودمر الهيكل)، وذلك بسبب عداء صدام لإسرائيل، وبسبب نواياه لإعادة بناء بابل»[1].

إلى هذا الحد يبلغ الخيال فى استخدام الأساطير لدعم الكيان الصهيونى المغتصب للقدس وفلسطين والقائم لتحقيق الهيمنة الامبريالية الغربية، وتحقيق هذه الأساطير «المسيحية ـ الصهيونية» معا!..

ولعل الحديث عن «بابل».. و«السبى البابلى لليهود القدماء».. وعن «نبوخذ نصر» يفسر لنا إسراع الصهاينة، الذين دخلوا العراق فى

---

(١) [الدين فى القرار الأمريكى] ص ٥٢.

ركاب الغزو الأمريكي - في مارس سنة ٢٠٠٣ م . إلى المتحف العراقي - ببغداد لسرقة كل الآثار والشواهد التي تحكي تاريخ هذا السبي البابلي القديم!.

● ولقد ذهب نحو ثمانمائة من قساوسة «المسيحية - الصهيونية»، تحت لواء مؤسسة «الجيب السامري»، التي يرأسها القس «فرانكلين جراهام» ذهبوا في ركاب القوات الغازية للعراق - في مارس سنة ٢٠٠٣ م لنشر المسيحية في العراق، ولتقديم «المساعدات» التبشيرية باسم «يسوع المسيح»![1]..

● أما رئيسهم - الرئيس «بوش - الصغير» فإنه قد رأى في حربه على العراق «حربا عادلة، وفق المفهوم المسيحي، كما شرحه القديس «أوغسطين» [٣٥٤ - ٤٣٠ م] في القرن الرابع الميلادي، وكما فصله كل من توما الأكويني» [١٢٢٥ - ١٢٧٤ م] و«مارتن لوثر» [١٤٨٣ - ١٥٤٦ م] وآخرون ..»[2].

ولقد اعتاد «بوش - الصغير» - أن يبدأ عمله اليومي - في البيت الأبيض - بقراءة صفحات من كتاب [أعظم ما يمكنني لأعظم العظماء] myutmostforhishighest للقس الاسكتلندي المبشر «أوزوالد تسيمبرز» - وهو عظات إنجيلية قصيرة ، مات مؤلفه سنة

---

(١) [نيوزويك] - الأمريكية في ١١ - ٣ - ٢٠٠٣ م . و[نيويورك تايمز] في ٥ ، ٦ - ٤ - ٢٠٠٣ م . مقال الصحفي الأمريكي «لوري جودستين».

(٢) [نيوزويك] - الأمريكية - في ١١ - ٣ - ٢٠٠٣ .

١٩١٧ م وهو يحرض الجنود الأستراليين والنيوز يلنديين المحتشدين - يومئذ - لغزو فلسطين، وانتزاع مدينة القدس من أيدي المسلمين!.

بمثل هذا «الورد» يبدأ «بوش - الصغير» يوم عمله في حكم القوة العظمى، التي تريد الهيمنة على العالم وجعل القرن الواحد والعشرين قرناً أمريكياً!..

● وإذا كانت «المسيحية - الصهيونية» الانجليزية قد بدأت أول تطبيقات مخطط اغتصاب القدس وفلسطين بـ «وعد بلفور» - سنة ١٩١٧ م. فإن «المسيحية - الصهيونية» الأمريكية قد بلغت الذروة على هذا الطريق وذلك «بوعد بوش - الصغير «لشارون» في أبريل سنة ٢٠٠٤ م. . ذلك «الوعد» الذي كتبه بوش في «رسائل الضمانات» التي تضمن لإسرائيل كل فلسطين. . والتي تحرم، اللاجئين الفلسطينيين الذين يعيش منهم في المنافي أكثر من ستة ملايين! - تحرمهم من حق العودة، الذي قررته الشرعية الدولية. . في قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤. . فحتى «الحقوق المدنية والدينية» التي ضمنها «وعد بلفور» لعرب فلسطين. . جاء «وعد بوش» ليحرم منها اللاجئين الفلسطينيين، الذين يزيد عددهم على عدد «المستوطنين الصهاينة» الذين يستعمرون أرض فلسطين!..

وإذا كان «وعد بلفور» قد صدر في مناخ دولي لم تكن فيه «شرعية دولية». . فإن «وعد بوش قد ضرب عرض الحائط بكل قرارات

الشرعية الدولية والمنظمات الدولية.. بل وقرارات ومواقف وتعهدات أمريكا ذاتها فى هذا المقام!..

* * *

يبقى أن ننبه على حقيقة أن هذه «الأيديولوجية الدينية» - المسيحية الصهيونية - التى ترى فى اغتصاب اليهود للقدس وفلسطين.. وفى إقامة الهيكل اليهودى على أنقاض المسجد الأقصى.. وفى قيام معركة «هرمجيدون» التى سيباد فيها المسلمون - ومعهم اليهود غير المؤمنين بالمسيح - وفى عودة المسيح ليحكم العالم ألف سنة سعيدة..

يبقى أن ننبه على حقيقة أن هذه العقيدة «المسيحية - الصهيونية»، لا تستلزم - بالضرورة حب أصحابها لليهود.. بل ربما كان العكس هو الحقيقة فى الكثير من الأحيان!!..

إنهم يرون فى اليهود مجرد «وسيلة» لتحقيق هذه الأساطير التى فسروا بها «رؤيا يوحنا».. كما أن المقاصد الاستعمارية لدولهم ترى فى هؤلاء «اليهود»، وفى استعمارهم الاستيطانى لفلسطين، مجرد «كيانات وظيفية» - عميلة - تحقق للامبريالية الغربية قاعدة استعمارية فى الشرق الإسلامى، هى امتداد عضوى للحضارة الغربية، «وقفاز» للقبضة الغربية الاستعمارية.. تقسم وحدة أرض الوطن العربى، وتحول دون نهوض عالم الإسلام...

فنحن - هنا - أمام «شراكة»، قائمة على تحقيق «المصالح» و«الأساطير» معا.. وفيها تغلف «الأساطير» «المصالح» وتعجل «المصالح» تحقيق «الأساطير»!.. وذلك دون أن يكون «الحب» دخل فى الجمع بين هؤلاء الفرقاء.. وإن كان «بغضهم» جميعا للإسلام وأمته وحضارته، قد لعب ويلعب دورا كبيرا فى هذه «الشراكة» وهذا «الصراع».

• أما اليهود.. فإنهم وإن نظروا - عقديا ولاهوتيا - بالسخرية والاستخفاف إلى هذه الأساطير المسيحية، فإنهم قد رأوا فيها «وسيلة» لحشد التأييد الغربى لمشروعهم الاستعمارى الاستيطانى على أرض فلسطين، وإقامة الوطن التوراتى، الذى تقول أساطيرهم إنه الوعد الإلهى لهم، كورثة لإبراهيم عليه السلام.

وإذا كانت الصهيونية - كحركة قومية - علمانية - لا تؤمن بالأساطير اليهودية حول هذا الوعد الإلهى وإنما تستخدمه وتستخدم أساطيره - فى التراث اليهودى - «وسيلة» لحشد اليهود حول مشروعها الاستعمارى فى فلسطين.. فإنها - مع عدم إيمانها بأساطير المسيحية البروتستانتية حول عودة المسيح - تستخدم هذه الأساطير «وسيلة» لحشد الدعم الغربى لمشروعها الاستعمارى.. إنها تصنع ذلك، وكأنها سعيدة بهذا «العبط - الأسطورى»، الذى سخر لها طاقات وإمكانات القوى الاستعمارية الغربية، فأصبحت مقبولة ومرغوبة ومدللة - فى هذا الصراع ضد الإسلام وأمته وعالمه - بعد قرون من الاضطهاد والاحتقار والإذلال الغربى ضد اليهود!.

فكل من الطرفين يستخدم الآخر، في هذه الشراكة «الامبريالية - اللاهوتية»، وسيلة لتحقيق أساطيره اللاهوتية.. ومصالحه الاستعمارية.. التي يتم تنفيذها وتحقيقها لحسابهما معا، وعلى حساب الإسلام والمسلمين!..

والصهاينة لا يخفون سعادتهم بهذه «الأحلام الأسطورية المسيحية»، التي ألهبت خيال البروتستانتية الغربية فجمعت بينها وبين اليهود - في هذه «الشراكة» - بعد قرون العداء الشديد.. جمعت بينهم ضد المسلمين، الذين أحسنوا إلى الفريقين.. ولم يضطهدوا أيا منهما في أية حقبة من حقب التاريخ!..

ولقد ألقى الصهيوني «بنيامين نتنياهو» - عندما كان سفيرا للكيان الصهيوني في الأمم المتحدة - خطابا في الجمعية العامة - في فبراير سنة ١٩٨٥م - أشار فيه إلى سعادة الصهاينة بثمرات هذه «الأساطير المسيحية» فقال:

«إن كتابات المسيحيين الصهيونيين، من الانجليز والأمريكان، أثرت بصورة مباشرة على تفكير قادة تاريخيين، مثل «لويد جورج» [١٨٦٣ - ١٩٤٥م] و«آرثر بلفور» [١٨٤٨ - ١٩٣٠ م] و«ودرو ولسون» [١٨٥٦ - ١٩٢٤ م] في مطلع هذا القرن:

إن حلم اللقاء العظيم - [عودة المسيح] أضاء شعلة خيال هؤلاء الرجال، الذين لعبوا دورا رئيسيا في إرساء القواعد السياسية والدولية لإحياء الدولة اليهودية. لقد كان هناك شوق قديم في تقاليدنا اليهودية

للعودة إلى أرض إسرائيل. وهذا الحلم الذي يراودنا منذ ٢٠٠٠ سنة، تفجر من خلال المسيحيين الصهيونيين»[١].

تلك إشارات ـ مجرد إشارات ـ إلى سلسلة من «الحقائق» التي ترتبت على «الأساطير».. والتي حكمت تاريخ هذا الصراع التاريخي على القدس وفلسطين.. عبر ما يزيد على خمسة قرون.. منذ إسقاط الصليبية الكاثوليكية لغرناطة [٨٩٧ هـ ١٤٩٢ م].. وحتى الحملة الصليبية «البوش الصغير» التي نعالج ونواجه وقائعها هذه الأيام..

وفي مواجهة هذا الصراع الذي فرضه الغرب علينا.. وإزاء هذا القتال الذي كتبه الغزاة على أمتنا.. لم يعد هناك أمامنا من خيار إلا الجهاد ـ الجهاد الفكري والعملي ـ ضد هذه الأساطير.. وضد الثمرات الإمبريالية المرة التي جسدتها على أرض القدس وفلسطين.

وصدق الله العظيم ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٦).

وصدق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ يقول: «لا تمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله». رواه الدارمي.

---

(١) [الدين في القرار الأمريكي] ص ٧٨. و[النبوءة والسياسة] ص ١٤٠

-٦-

على الساحة الإسلامية

وإذا كان هذا المشهد الغربي - مشهد السعي الحثيث - فكريا .. ودينيا وعمليا، لإعادة اختطاف القدس وفلسطين - ومن ثم الشرق الإسلامي - من الأمة الإسلامية..

إذا كان هذا المشهد - الذي أشرنا إلى أبرز معالمه - على امتداد هذه العقود المتطاولة - حافلا بالكثير من مظاهر الغرابة والفجاجة والشذوذ..

● مطامع «إمبريالية» سافرة، تبحث لها عن أساطير دينية لتستر عوراتها.. ولتعبيء العامة في سبيل التضحية من أجل هذه المطامع!..

● وأساطير و«رؤى منامية» تتحول إلى عقائد دينية، تحرك تيارات فكرية وكنائس ومؤسسات وقيادات وحكومات - في مجتمعات تدعي «العقلانية.. والتنوير!» - .. تحركها هذه الأساطير للعمل الاستعماري ضد الشرق الإسلامي ولإعادة اغتصاب القدس وفلسطين..

● ويهود أصولهم خزرية، هاجروا من اضطهاد روسيا القيصرية إلى وسط أوربا وشرقها.. لا يتكلمون العبرية، وليست لهم أية علاقة بالسامية أو العبرانيين القدماء.. وبدلا من أن يبحثوا لمشكلاتهم عن «حلول» في أوطانهم، إذا بهم يعقدون «صفقة شراكة» مع المد «الامبريالي» الغربي الطامع في استعمار الشرق الإسلامي، فيتحول هؤلاء اليهود الخزر - مع يهود غربي أوربا - إلى شريك أصغر في حلف غير مقدس وعملية لا أخلاقية، يعضون فيها اليد الإسلامية، التي كانت هي اليد الوحيدة التي لم تتدنس باضطهاد اليهود عبر التاريخ الطويل.. في الوقت الذي يشاركون ويساعدون فيه الغرب الامبريالي، الذي مارست حضارته ودوله وكنائسه كل ألوان الاضطهاد والاحتقار والإذلال ضد جميع اليهود!..

إذا كان هذا المشهد الغربي - الذي أشرنا إلى أبرز معالمه - حافلا بكل ألوان هذه الغرائب والعجائب التي بلغت حد الشذوذ.. فإن المشهد الشرقي كانت له - هو الآخر - الكثير من ألوان الغرابة والشذوذ..

● فاليهود الشرقيون، الذين يدينون بحريتهم وثرائهم وازدهارهم الديني والثقافي، بل وبوجودهم لسماحة الإسلام.. قد نسوا - أو تناسوا - كل الأيادي البيضاء للحضارة الإسلامية عليهم - عبر تاريخ هذه الحضارة الطويل - فوجدنا تيارهم الأغلب والأعم ينخرط في

خدمة هذا المخطط الامبريالي الغربي لاحتلال الشرق، واغتصاب القدس وفلسطين..

- لقد نسوا أن الدولة الإسلامية الأولى - دولة المدينة.. على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - قد جعلتهم جزءا من الأمة الواحدة، التي كونت رعية هذه الدولة فنص دستورها - الصحيفة - على أن «يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. وأن لهم النصر والأسوة مع البر المحض والنصح والنصيحة، دون الإثم»[1].

ونسي هؤلاء اليهود الشرقيون أنهم - عند الفتح الإسلامي للقدس وفلسطين سنة ١٥ هـ سنة ٦٣٦ م - كانوا مطرودين ومنفيين من تلك البلاد، هدمت معابدهم، وتعرضوا للإذلال والقتل والسبي على يد الرومان - في عهد وثنية الرومان وفي عهد نصرانيتهم على حد سواء!.. حتى لقد طلب نصارى القدس من عمر بن الخطاب [٤٠ ق. هـ ٢٣ هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م] يوم فتحها «ألا يسكن فيها أحد من اليهود أو اللصوص!».. لكن الإسلام السمح، الذي يؤمن أهله بكل الشرائع والكتب والنبوات والرسالات، والذي يقدس كل المقدسات، ويجعل حمايتها مقصدا من مقاصد الجهاد الإسلامي ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات

---

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] ط ١٧ - ٢١ - جمعها وحققها: د. محمد حميدالله الحيدر آبادي. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م.

ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾. (الحج: ٤٠).. هذا الإسلام السمح هو الذى أعاد اليهود إلى الأراضى المقدسة، فعاشوا فيها مع كل أصحاب الديانات والمقدسات «لهم ماللمسلمين وعليهم ما على المسلمين حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم» - كما نص على ذلك عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

- ونسى اليهود الشرقيون أن آباءهم وأجدادهم قد بلغ اندماجهم فى الأمة الإسلامية والحضارة الإسلامية إلى الحد الذى قتلوا فيه وذبحوا وأحرقوا مع المسلمين من قبل الصليبيين الذين احتلوا القدس - فى الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩٢ هـ ١٠٩٩ م..

- ونسوا - كذلك - أن أجدادهم قد أصابهم ما أصاب المسلمين من القتل ومن اضطهاد محاكم التفتيش من قبل الصليبية الكاثوليكية، عند اقتلاع الوجود الإسلامى من الأندلس سنة ٨٩٧ هـ سنة ١٤٩٢ م.. وأنهم، فى كل هذه المحن والأزمات والاضطهادات التى أنزلتها بهم الصليبية الغربية قد وجدوا الحماية والطمأنينة والأمان فقط فى وطن الإسلام وحضارته..

نسى اليهود الشرقيون كل ذلك.. وما أن لاحت علامات الشراكة «الصليبية - الصهيونية» ضد الشرق الإسلامى، حتى أسرعوا ليكونوا جزءا من هذه «الصفقة» التى يعضون فيها اليد الوحيدة التى أحسنت إليهم عبر تاريخهم الطويل.. وليكونوا فى خدمة «الصليبية الغربية»

التى مارست ضدهم كل ألوان الاضطهاد والاحتقار والإذلال عبر ذلك التاريخ الطويل! . .

● وفى دراسات أكاديمية جادة عن الصحافة اليهودية ، وعن مواقف الطوائف اليهودية الشرقية واختياراتها بين الولاء للأوطان الشرقية التي تعيش فى ظلالها وبين الانتماء للصهيونية العاملة فى خدمة المشروع الإمبريالى الغربى ، نطالع حقائق مذهلة . . ونقرأ ـ على سبيل المثال :

«إن معظم اليهود الذين وجدوا فى مصر كل رعاية، قد أيدوا الصهيونية، وقاموا بدعمها بشتى الوسائل..وذهبوا إلى حد إنشاء الجمعيات الصهيونية التى كانت تتولى جمع التبرعات وإعداد الشبان اليهود تمهيدا لتهجيرهم إلى فلسطين، وإصدار الصحف الصهيونية بلغات متعددة ـ بما فيها اللغة العربية ـ لحشد يهود مصر وراء الهدف الصهيونى الأسمى الذى يتمثل فى إقامة دولة عبرية على أرض فلسطين»[1].

● ولم يكن يهود مصر فقط هم الذين سارعوا إلى هذه الخيانة الوطنية والحضارية . . فيهود «الجزائر قد اشتركوا بوفد يمثلهم فى المؤتمر الصهيونى العالمى الأول، الذى انعقد فى بال ـ بسويسرا ـ سنة ١٨٩٧م»[2].

---

(١) سهام نصار [اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية] ص ٨ . طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م.

(٢) المرجع السابق ص ٩ .

● ويهود المغرب «قد أسسوا أول جمعية صهيونية سنة ١٩٠١ م، وشاركوا في المؤتمر الصهيوني العالمي الخامس، في بازل - بسويسرا - في ديسمبر سنة ١٩٠١ م. بوفد يمثلهم».

وأصدروا - في الجزائر والمغرب - العديد من الصحف الصهيونية «التي اهتمت بإيجاد رابطة بين الصهيونيين والعناصر الموالية للصهيونية» في تلك البلاد[١].

● وفي ليبيا «أنشأت الطائفة اليهودية مدرسة عبرية عسكرية، خلال الحرب العالمية الثانية لتجنيد بعض شبابها حتى ينضموا إلى اللواء اليهودي الذي تشكل خلال هذه الحرب»[٢]..وهو اللواء الذي أصبح القوة الصهيونية الضاربة في حرب اغتصاب فلسطين سنة ١٩٤٨ م

● وفي العراق «بدأ النشاط الصهيوني سنة ١٩١٩ م حينما أسس «آهارون ساسون» فرعا للمنظمة الصهيونية. وفي سنة ١٩٢٣م اشترك يهود العراق في المؤتمر الصهيوني العالمي الثالث عشر بوفد يمثلهم..»[٣].

● وفي الوقت الذي كانت المظاهرات والإضرابات والاعتصامات والاضطرابات تعم فيه أرض فلسطين - سنة ١٩٣٥ م - ضد الصهيونية والاستيطان اليهودي، أنشأ اليهود المصريون - في مصر «وكالات لبيع أرض فلسطين لليهود»! .. وأخذت

---

(١) المرجع السابق. ص ٩.

(٢) المرجع السابق. ص ١٠

(٣) المرجع السابق. ص ١٠

الصحف الصهيونية التى يصدرونها ـ بمصر ـ فى نشر الإعلانات كى يشترى اليهود الأرض العربية فى فلسطين .. ولقد نشرت إحدى هذه الصحف ـ [الشمس] فى العدد ١٨ بتاريخ ١١ ـ ١ ـ ١٩٣٥ ـ هذا الإعلان:

«إخوانى الإسرائيليين

إن فلسطين تناديكم بأعلى صوتها طالبة منكم أنتم أبنائها ـ [كذا] ـ الأبرار، أن تشتروا كل واحد منكم قطعة أرض بالنقد أو بالتقسيط، وذلك بواسطة البنك على يد الوكيل الوحيد بالقطر المصرى، مع التسهيلات فى الدفع. وفى زيارة واحدة فى منزله تشهدوا ـ [كذا] ـ بصدق قولنا وأماننا ـ فيها اذهبوا إلى شارع عبد العزيز رقم ١١ شقة رقم ١٨ بالدور الرابع. عجلوا ولا تتأخروا، إذ الأراضى يزيد ثمنها من يوم إلى يوم، والمسألة فرصة عظيمة..

الوكيل الوحيد

إبراهيم يعقوب سربيال

والمقابلة معه من الساعة $\frac{1}{2}$ ١ إلى الساعة $\frac{1}{2}$ ٣ بعد الظهر من كل يوم». [١]

فيهود مصر ـ الصهاينة ـ هم ـ فى هذا الإعلان ـ «أبناء فلسطين

---

(١) انظر صورة الإعلان فى د. عواطف عبد الرحمن [الصحافة الصهيونية فى مصر ١٨٩٧ ـ ١٩٥٤ م: دراسة تحليلية] ص ١٦٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م.

البورة»!!.. وأرض فلسطين تناديهم لشرائها من أصحابها العرب المسلمين!..

هذا عن المعلم الأول من معالم الشذوذ في ساحة الشرق الإسلامي، إبان الزحف «الصليبي الصهيوني» على القدس وفلسطين .. معلم خيانة أغلب اليهود الشرقيين.. وعضهم لليد الوحيدة التي أحسنت إليهم طوال التاريخ!..

* * *

● أما المعلم الثاني من معالم هذا الشذوذ.. فهو الغفلة الفكرية والثقافية التي سادت قطاعات كثيرة وكبيرة من مثقفينا إزاء المشروع «الصليبي - الصهيوني» لاغتصاب القدس وفلسطين.. فرغم عشرات السنين التي شهدت النشاطات الغربية المحمومة.. والمعلنة.. وجدنا صمتا شبه مطبق إزاء مخططات هذا المشروع «الصليبي - الصهيوني» ومخاطره..

والأشد غرابة في هذا المشهد، هو أن هذا الصمت المطبق إنما ساد أكثر ما ساد في أوساط «المثقفين الليبراليين» الأكثر اطلاعا على ما يجري في الدوائر الفكرية والإعلامية والسياسية الغربية، والأعلم بلغات البلاد التي تشهد هذا النشاط المحموم لاغتصاب القدس وفلسطين.. حتى لتقول إحدى الدراسات الأكاديمية الجادة: «إن المثير للدهشة أن معظم المثقفين المصريين الذين عاصروا اليهود أثناء وجودهم في مصر قبل حرب سنة ١٩٤٨م لا يعلمون

شيئا عن طبيعة النشاط الصهيوني الذى مارسه الصهيونيون فى البلاد[1].

وأنّى لمن لا يعلم ما يدور من نشاط صهيوني فى بلده، أن يعلم ما يدور من هذا النشاط فى خارج هذه البلاد؟!.

وفى تقديرنا، أن «التغريب» والانبهار بالنموذج الحضارى الغربي، الذى طبع الثقافة الليبرالية فى بلادنا، هو الذى خلق «الثقافة ـ التابعة» و«المثقف التابع» للمشاريع الغربية، والعاجز، من ثم، عن نقد هذه المشاريع الغربية. الأمر الذى جعل الكثير من المثقفين الليبراليين ـ المتغربين ـ يغفلون عن هذا الخطر: أو يغضون الطرف عنه.. بل ويقتربون ـ أحيانا ـ من الخيانة عندما يضفون الظلال الإنسانية على تدفق الهجرات الصهيونية إلى فلسطين، وذلك بتصوير المعاناة التى يكابدها هؤلاء اليهود «المساكين»!!..

كما لعبت العلمانية، التى صبغت ثقافة هؤلاء «الليبراليين» والتى تنفى البعد الدينى فى الصراعات.. ومنها البعد الدينى فى الصراع على القدس وفلسطين ـ لعبت دورها فى «البرود الثقافى!» الذى أصاب هؤلاء الليبراليين إزاء المخاطر الصهيونية التى كانت تزحف على القدس وفلسطين.

* * *

---

(١) [اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية] ص ٩.

● ولحسن الحظ، فإن هذه «البلوى الثقافية والفكرية» لم تكن عامة في كل دوائر الفكر وتيارات الثقافة في بلادنا.. فالعلماء والمفكرون والمثقفون الإسلاميون قد وعوا مخاطر هذا المشروع «الصليبي ـ الصهيوني»، ونبهوا على آثاره الكارثية، لا على فلسطين وحدها، وإنما على الأمة الإسلامية جمعاء..

ولقد شهدت إحدى الدراسات اليسارية ـ بحق ـ على «أن المثقفين الليبراليين العرب قد تسامحوا مع الصهيونية، ولم يقف ضدها إلا أصحاب الاتجاهات الإسلامية والعربية..»(١).

وإذا شئنا إشارة إلى نموذج من نماذج الوعي الإسلامي بخطر هذا المشروع «الصليبي ـ الصهيوني» فإن في مجلة [المنار] لصاحبها الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م]ـ والتي كانت المنبر الإسلامي العالمي الذي حمل فكر مدرسة الإحياء والتجديد ـ مدرسة جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م] والإمام محمد عبده [١٢٦٥ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م] ـ على امتداد ما يقرب من أربعين عاما ـ إن في [المنار] وصاحبه النموذج على الوعي الإسلامي بمخاطر هذا المشروع «الصليبي ـ الصهيوني».

ـ ففي نوفمبر سنة ١٩١٠ م ينبه الشيخ رشيد رضا على خطر التغلغل اليهودي في الدولة العثمانية، «لأن هدفهم أن يملكوا بيت

(١) [الصحافة الصهيونية في مصر ١٨٩٧ ـ ١٩٥٤ م ـ دراسة تحليلية] ص ٦

المقدس وما حوله ليقيموا فيه ملك إسرائيل»[1]. . فالخطر محدق بالشرق الإسلامي كله وليس فقط بفلسطين . .

ـ وفي أكتوبر سنة ١٩٢٨ م ينبه الشيخ رشيد رضا إلى مخاطر إقامة الكيان الصهيوني على الوحدة العربية والإسلامية، وذلك بإقامته الجسم «الصهيوني» العازل بين أبناء الأمة العربية وأوطانها . . فيكتب قائلا: إن غرض الانجليز من مساعدة اليهود على العرب ـ في فلسطين ـ هو «جعل هذه المنطقة من البلاد «يهودية ـ بريطانية» فاصلة بين عرب مصر وعرب سورية والعراق..»[2].

ـ وفي الوقت الذي اندلعت فيه الاضطرابات على أرض فلسطين ـ في ثورة البراق ـ ضد تطلعات اليهود إلى المقدسات الإسلامية . كتب الشيخ رشيد رضا سلسلة من المقالات التي تحلل تاريخ هذا الصراع بين العرب والمسلمين وبين هذه الأطماع «الصليبية ـ الصهيونية» . . وذلك تحت عنوان (تحليل لتاريخ الأطماع اليهودية في فلسطين) . . ومما جاء في هذا التحليل:

«إن اليهود من قواعد شريعتهم (التوراة) أن يستأصلوا القوم الذين يغلبونهم على أمرهم (حتى لا يستبقوا منهم نسمة ما) . .

ومن الحقائق الثابتة الخفية أن «الجمعية الماسونية»، التي ثلت عروش الحكومات الدينية من أمم أوربة والترك والروس، هي من كيد

(١) مجلة [المنار] مجلد ١٣ جـ ١٠ ص ٧٢٥ ـ عدد نوفمبر سنة ١٩١٠ م.
(٢) المصدر السابق. مجلد ٢٩ جـ ٦ ص ٤١٦ ـ عدد ١٤ أكتوبر سنة ١٩٢٨ .

اليهود، وهم أصحاب السلطان الأعظم فيها، وإن كان ذلك يخفى على كثير من أهلها أو أكثر المنتمين إليها، ومن غرائب كيد اليهود وقدرتهم التى فاقوا بها جميع شعوب البشر، أن الغرض السياسى النهائى لهم من هذه الجمعية هو تأسيس دولة يهودية دينية فى مهد الدولة الإسرائيلية التى أسسها داود وأتمها سليمان بانى هيكل الدين اليهودى فى أورشليم على جبل صهيون، ولهذا سموها جمعية البنائين الأحرار، ويريدون بهم الذين بنوا هيكل سليمان، وأكثر أفراد هذه الجمعية يجهلون السبب الصحيح لهذه التسمية..

ومن الحقائق الاجتماعية التاريخية أن اليهود هم الذين وضعوا النظام المالى، والذى هو قطب رحى المدنية الغربية الحاضرة فى العالمين القديم والجديد، وأن لهم به النفوذ الأعلى فى جميع الدول والأمم «الرأسمالية». ـ كما يقال فى عرف هذا العصر..

ومن الحقائق الثابتة التاريخية أيضا، أنه لم توجد جماعة من جماعات البشر الدينية والسياسية عرفت كنه كيد اليهود ومكرهم فى الأمم، ومقاصد الماسونية وأهلها وتصدت لمقاومتهم وإسقاط نفوذهم إلا جمعية الجزويت الكاثوليكية، وذلك أن الكاثوليك يدينون بوجوب الخضوع الدينى والسياسى لأحبار رومية رؤساء الكنيسة المعصومين عندهم. ويعلمون أن اليهود هم الذين ثلوا عرشها بنفوذ الجمعية الماسونية التى انتظم فى سلكها الملايين من النصارى ومن غيرهم وأكثرهم لا يشعرون.. كما لا يخفى ما كان من نفوذ اليهود فى ملاحدة الروس الذين أضعفوا سلطة الكنيسة الأرثوذكسية بمجلس الدوما، ثم أسقطوها بثل عرش

القياصرة دعاتها وحماتها، وتأسيس حكم البلشفية في تلك الممالك الواسعة..

وما كان من نفوذهم في ملاحدة الترك بإسقاط نفوذ الخلافة التركية العثمانية، ثم بهدم الشريعة الإسلامية من المملكة التركية، وجعل حكومتها الخادية تسعى لمحو الإسلام من الشعب التركي ومن الشعوب الأعجمية الإسلامية التي كانت تابعة لها كالألبان والبوشناق وغيرهما كالإيرانيين والأفغانيين..

... ولقد استخدم اليهود دول النصارى فظاهرتهم على المسلمين ... وأسسوا الجمعية الصهيونية للسعي إلى ذلك بقوة الشعب اليهودي المالية والمعنوية، وبجعل الاعتقاد التقليدي حاديا لهم في هذا السعي وقوة روحية تؤيد سائر القوى الكسبية..

إنهم سدنة المال، هيكل المعبود الأكبر للأمم والدولة العظمى في هذا العصر، وهم الذين استعبدوهم له، ولهم - بهذا المال - في العالم المدني من النفوذ والصحف والقدرة على الدعاية ما يقلب الحقائق، ويلبس الحق بالباطل..

وهم يعتمدون فيما يرومون من الاستقلال في الوطن القومي في فلسطين على قوة الانكليز تحميهم .. ولقد طلب عشرة آلاف من شبان اليهود الامريكيين إذن حكومتهم لهم أن يذهبوا إلى فلسطين لقتال العرب..»

وبعد هذا التحليل المستفيض - الذي اقتبسنا منه هذه السطور - والذي أشار فيه الشيخ رشيد رضا - أيضا - إلى إحسان المسلمين -

تاريخيا - إلى اليهود. «وكان من عدل المسلمين ورحمتهم أن رفعوا الاضطهاد عن رءوس اليهود، وعاملوهم بالعدل والرحمة؛ حتى إنهم صاروا يأذنون لبعضهم بالإقامة في بيت المقدس» - بعد أن كانوا ممنوعين من ذلك على عهد الرومان.. (١).

بعد هذا التحليل.. أشار الشيخ رشيد إلى سعيه لدى رؤساء المنظمات الصهيونية، كي يفكوا تحالفهم مع الاستعمار، ويعيشوا - كما كانوا في البلاد العربية والإسلامية - «لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»..

ولقد أشار - وهو بصدد الحديث عن هذه المساعي - إلى دور «جمعية الاتحاد والترقي» التركية - عندما انقلبت على السلطان العثماني - في التمكين لليهود في فلسطين.. فقال:

«وما زال أمل اليهود في فلسطين يقوى ويضعف، ويطفو ويرسب؛ حتى طمعوا في عهد السلطان عبد الحميد بإباحة الهجرة - [إلى فلسطين]. والامتلاك بلا شرط ولا قيد.

ثم طمعوا على عهد دولة الاتحاد والترقي (التي أسقطت هذا السلطان وملكت على من بعده الأمر بمساعدتهم) في شراء فلسطين من الجمعية بضعة ملايين من الجنيهات.

---

(١) المصدر السابق. مجلد ٣٠ جـ ٥ ص ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٢. عدد ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٤٨ م - ١ نوفمبر سنة ١٩٢٩ م

ولما علمنا بهذه المساعي، توخيت أن ألقى معتمد الجمعية الصهيونية بمصر. فأستعرف له وأعترف له الحقيقة، وأعرفه برأي الجمعيات العربية في الأمر، واهتديت إلى ذلك بسعي بعض معارفي من اليهود ـ وكان مما كاشفت به المعتمد الصهيوني: أن عزم جمعيتهم على شراء فلسطين من إخوانهم في الماسونية زعماء جمعية الاتحاد والترقي قد بلغ زعماء العرب المشتغلين بالسياسة وترقية الأمة العربية، وقرروا فيما بينهم أنه إذا تحقق هذا النبأ ووقع بأي شكل من الأشكال فلا وسيلة عندهم إلا تأليف العصابات المسلحة من البدو وغيرهم لمقاومة هذا الاعتداء على بلادهم بكل ما يمكن من وسائل المقاومة المعهودة عند الشعوب الأخرى. وأنه خير لليهود، إذا كانوا يريدون أن يكثروا في البلاد العربية (فلسطين وغيرها) ويكونوا فيها أحرارا آمنين متمتعين بما يتمتع به سائر أهلها من الحقوق المدنية والشخصية، أن يتفقوا مع زعماء العرب أنفسهم على ذلك من وسائل ومقاصد ـ وأرى أن ذلك ممكن...

ولما فصلت له هذا الرأي، أعجبه، وبلغه لجمعيتهم، وظهر له أثر بمؤتمر (بال) الصهيوني، إذ صرح بعض أعضائه بالخطر الوحيد الذي يستقبلهم من قبائل العرب البدوية.».

ولم تنقطع مساعي الشيخ رشيد رضا، ومحاولاته إقناع اليهود بفك ارتباطهم بالمشروع الاستعماري الغربي، والاتفاق مع العرب على أن يعيشوا ـ في البلاد العربية، بما فيها فلسطين ـ أحرارا آمنين متمتعين بما يتمتع به سائر أهلها من الحقوق المدنية

والشخصية» . . لم تنقطع مساعيه وآماله حتى بعد صدور وعد «بلفور» سنة ١٩١٧ م . . فسعى للقاء «حاييم وايزمان» [١٨٦٤ - ١٩٥٢ م] رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، وحاوره حول هذا الأمر . . وكتب عن ذلك فقال :

«..ثم ذاكرت، في هذا الموضوع، زعيم الصهيونية الكبير الدكتور [وايزمن] بعد الحرب العالمية والشروع في تنفيذ عهد بلفور، في إثر مذاكرات أخرى مع بعض رجال الجمعية - [الصهيونية] - في مصر والقدس وقف هو على تفاصيلها كلها. وكان يريد المجيء إلى مصر قبل الحرب للبحث فيه معي. ومما قاله لي: إن رأيي في اتفاق العرب مع أبناء عمهم العبرانيين ممكن، غير خيالي، بشرط أن يرضى به أمراء العرب وحكامهم المستقلون..

ثم انقطعت المذاكرة في هذه المسألة لاعتماد الصهيونيين على قوة الانكليز في إعادة ملك إسرائيل لهم. وكل منهما يمكر بالآخر»[١] . .

وهكذا رفضت الصهيونية مصافحة اليد العربية الإسلامية التي امتدت إليها، طالبة منها العيش في العالم العربي «أحرارا آمنين متمتعين بما يتمتع به سائر أهلها من الحقوق المدنية والشخصية» ومضوا في «الشراكة» التي عقدوها مع الإمبريالية الصليبية الغربية ضد العرب والمسلمين ! . .

---

(١) المصدر السابق . مجلد ٣٠ جـ ٥ ص ٣٩١، ٣٩٢.

● وفى عدد [المنار] الصادر فى ٣٠ يناير سنة ١٩٢٩ م. يعاود الشيخ رشيد رضا تناول القضية.. فيكشف لنا عن وعى بدور «المسيحية ـ الصهيونية» فى المخطط الامبريالى الغربى لاغتصاب القدس وفلسطين وذلك عندما يقول:

«وأعجب من ذلك أن دسائس اليهود تمكنت من إغواء كثير من نصارى أوربة وامريكة واقناعهم بأن الإيمان بالكتاب المقدس يقتضى مساعدتهم على العودة إلى فلسطين وامتلاك أورشليم.. إلخ. تصديقا للأنبياء، وتحقيقا لظهور المسيح ـ الذى يختلف الفريقان فى شخصه وعمله ـ فاليهود يعنون مسيحهم الملك الدنيوى الذى يعيد ملك سليمان لهم، والنصارى يعنون المسيح عيسى ابن مريم الذى يجىء فى ملكوته ليدين العالم...»[1].

● وفى عدد [المنار] الصادر فى أول ديسمبر سنة ١٩٢٩ م.. يشير الشيخ رشيد رضا إلى الموقف الواعى والشجاع لشيخ الأزهر الإمام محمد مصطفى المراغى [١٢٩٨ ـ ١٣٦٤ هـ ١٨٨١ ـ ١٩٤٥ م] «الذى ارتفع صوته ـ ضد المخططات الانجليزية ـ اليهودية فى فلسطين ـ فى وقت خرست فيه ألسنة جميع أمراء مصر وكبرائها الأحرار ـ [الليبراليين] ـ حتى غير المقيدين بسياسة الحكومة ومشربها، لا الوزراء والرؤساء الرسميين وحدهم! والشيخ المراغى من كبارهم.

---

(١) المصدر السابق. مجلد ٣٠ جـ ٧ ص ٥٥٥ عدد ٣٠ شعبان سنة ١٣٤٨هـ ٣٠ يناير سنة ١٩٢٩ م.

ومـوقـفـه هـذا فـتـح جـديـد فـى النهـضـة العـربيـة واليـقظة الإسـلامـيـة معا..».[1]

* * *

● وفي الوقت الـذى كانت الصحـافة الصهيونية بمصر تنشر فيه الإعلانات التى تغرى اليهود بشراء أرض فلسطين.. كان الشيخ رشيد رضا يصدر وينشر «فتوى» تحريم بيع الأرض العربية لليهود..

فلقد جاءه من أرض فلسطين «سؤال» من محمد يعقوب الغصين رئيس اللجنة التنفيذية لمؤتمر الشبان العربى بفلسطين يسأل فيه عن «حكم الشرع فيمن يساعد اليهود على امتلاك فلسطين ببيع أرضها وغير ذلك».. وجاء فى السؤال:

«لقد وصلت حالة البلاد الفلسطينية إلى درجة من أسوأ الحالات، وأصبح هذا القطر العربى الإسلامى مهددا بخطر الاضمحلال والزوال، بسبب ما تسرب إلى أيدى أعـداء البلاد من الأراضى المقدسة التى تعد بحق هى الحصـون التى يجب على كل مسلم أن يدافع عنها إلى آخر نسمة من حياته.

ولقد أعلن اليهود مرارا أنهم يريدون الاستيلاء على هذه البلاد المقدسة

---

(١) المصدر السابق. مجلد ٣٠ جـ٦ ص ٤٦٦. عدد ٣٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٨ هـ ١ ديسمبر سنة ١٩٢٩م

استيلاء أبديا تاما، وأن يجعلوها يهودية. كما أن انكلترا انكليزية. وقد بدأت نتائج غزوتهم تظهر جلية واضحة، فقد أصبح عدد كبير من المسلمين مشردين بلا مأوى، وهذه مقدمة لتشريد بقية السكان وإجلائهم عن بلادهم، كما أنهم استولوا على مرافق البلاد الاقتصادية، ولم يبق للمسلمين غير القليل من أراضيهم التي إن لم يحافظوا عليها أصبحت فلسطين المقدسة يهودية بالفعل بعد زمن قليل.

إن أعداء البلاد يريدون فتحها والاستيلاء عليها بالمال، ولو أنهم أرادوا افتتاحها حربا وقعد أحد أبنائها عن الجهاد، أو قام بساعد الخصوم على امتلاكها لقلنا إنه خارج عن دينه وقومه، فما رأيكم فيمن يساعدهم على تمليكهم البلاد؟ وهذا لا يقل خطورة عمن يقعد عن الجهاد أو يساعد الخصم؟

وهل يجوز لمن يؤمن بالله واليوم الآخر وبكتاب الله وشريعته ورسوله أن يبيع أرضه لليهود بعد أن يعلم أنه إن فعل ذلك مكنهم من مقدسات المسلمين، وساعدهم على القضاء على الإسلام، وطرد إخوانه من بلادهم؟ وما حكم أمثال هؤلاء في الإسلام؟

رئيس اللجنة التنفيذية لمؤتمر الشبان العربي بفلسطين

محمد يعقوب الغصين»

● وجوابا على هذا السؤال ـ الذي نشر في مجلة [المنار] عدد ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ يونية سنة ١٩٣٣م. والذي حذر فيه صاحبه من المخطط الصهيوني «للاستيلاء على فلسطين بالمال.. والسيطرة على

مرافقها الاقتصادية.. وتشريد سكانها وإجلائهم عن بلادهم.. لتصبح فلسطين المقدسة يهودية..!.. وهو المخطط الذى نفذته الصهيونية تحت حماية الصليبية الغربية..

جوابا على هذا السؤال.. أصدر الشيخ محمد رشيد رضا "فتواه" التى نشرت فى [المنار] - فى ذات التاريخ - والتى قال فيها:

[الجواب]:

(بسم الله الرحمن الرحيم) رب آتنى حكما وفهما، وعلمنى من لدنك علما.

أما بعد، فإن حكم الإسلام فى عمل الانكليز واليهود والصهيونيين فى فلسطين حكم قوم من أهل الحرب أغاروا على وطن من دار الإسلام فاستولوا عليه بالقوة، واستبدوا بأمر المُلك فيه، وشرعوا فى انتزاع رقبة أرضه من أهله بتدابير منظمة ليسلبوهم المِلك (بكسر الميم) كما سلبوهم المُلك (بضمها).

وحكم من يساعدهم على عملهم هذا (امتلاك الأرض) بأى نوع من أنواع المساعدة وأية صورة من صورها الرسمية (كالبيع) وغير الرسمية (كالترغيب) حكم الخائن لأمته وملته، العدو لله ولرسوله وللمؤمنين، الموالى لأعدائهم وخصومهم فى ملكهم ومُلكهم. لا فرق بينه وبين المجاهد معهم للمسلمين بماله ونفسه. فالذى يبيع أرضه لليهود الصهيونيين، والذى يسعى فى شراء أرض غيره لهم من سمسار وغيره كالذى يساعد أى قوم من الأجانب على قومه فيما يحاولون من فتح بلادهم بالسيف والنار

وامتلاك أوطانهم، بل أقول، ولا أخاف في الله لومة لائم، ولا إيذاء ظالم: إن هذا النوع من فتح الأجنبي لدار الإسلام هو شر من كل ما سبقه من أمثاله من الفتوح الحربية السياسية والدينية على اختلاف أسمائها في هذا العصر، لأنه سلب لحق أهل الوطن في مُلك بلادهم وحكمها، ولحقهم في ملك أرضها لأجل طردهم منها. ومن المعلوم بالبداهة أنه إذا بقي لنا ملك الأرض تيسر لنا إعادة مُلك الحكم، وإلا فقدناهما معًا.

هذا وإن فقد فلسطين خطر على بلاد أمتنا المجاورة لهذا الوطن منها، فقد صار من المعلوم بالضرورة لأهل فلسطين والمجاورين لهم، ولكل العارفين بما يجري فيها، من عزم اليهود على تأسيس الوطن القومي الإسرائيلي، واستعادة ملك سليمان بقوة المال، الذي هم أقطاب دولته الاقتصادية وبقوة الدولة البريطانية الحربية، إن هذا الخطر سيسري إلى شرق الأردن وسورية والحجاز والعراق، بل هو خطر سينتقل من سيناء إلى مصر..

وجملة القول: أن الصهيونية البريطانية خطر على الأمة العربية في جميع أوطانها الآسيوية، وفي دينها ودنياها، فلا يعقل أن يساعدهم عليه عربي غير خائن لقومه ووطنه، ولا مسلم يؤمن بالله تعالى وبكتابه العزيز وبرسوله محمد خاتم النبيين، صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه. بل يجب على كل مسلم أن يبذل كل ما يستطيع من جهد في مقاومة هذا الفتح، ووجوبه آكد على الأقرب فالأقرب وأهون أسباب المقاومة وطرقها

المقاومة السلبية، وأسهلها الامتناع عن بيع أرض الوطن لليهود، فإنه دون كل ما يجب من الجهاد بالمال والنفس الذي يبذلونه هم في سلب بلادنا وملكنا منا.

ومن المقرر في الشرع أنهم إن أخذوها، وجب على المسلمين ـ في جملتهم ـ بذل أموالهم وأنفسهم في سبيل استعادتها، فهل يعقل أن يبيح لنا هذا الشرع تمهيد السبيل لامتلاكهم إياها بأخذ شيء من المال منهم، وهو معلوم باليقين، لأجل أن يوجب علينا بذل أضعاف هذا المال مع الأنفس لأجل إعادتها لنا، وهو مشكوك فيه، لأنه يتوقف على وحدة الأمة العربية وتجديد قوتها بالطرق العصرية، وأنَّى يكون ذلك لها وقلب بلادها وشرايين دم الحياة فيها في قبضة غيرها؟!.

فالذي يبيع أرضه لليهود في فلسطين أو في شرق الأردن يعد جانيا على الأمة العربية كلها لا على فلسطين وحدها.

ولا عذر لأحد بالفقر والحاجة إلى المال للنفقة على العيال، فإذا كان الشرع يبيح السؤال المحرم عند الحاجة الشديدة ، ويبيح أكل الميتة والدم ولحم الخنزير للاضطرار، وقد يبيح الغصب والسرقة للرغيف الذي يسد الرمق ويقي الجائع من الموت بنية التعويض، فإن هذا الشرع لا يبيح لمسلم بيع بلاده وخيانة وطنه وملته لأجل النفقة على العيال، ولو وصل إلى درجة الاضطرار، إن فرضنا أن الاضطرار إلى القوت الذي يسد الرمق يصل إلى حيث لا يمكن إزالته إلا بالبيع لليهود وسائر أنواع الخيانة، فالاضطرار الذي يبيح أمثال ما ذكرنا من المحظورات أمر يعرض للشخص الذي أشرف

على المـوت من الجـوع، وهـو يزول برغـيف واحـد مـثلا، ولـه طرق ووسائل كثيرة.

وإنني أعتـقد أن الذين باعـوا أرضهم لهم لم يكونوا يعلمـون أن بيعـها خيـانة لله ولرسـوله ولدينه وللأمة كلها، كـخيـانة الحـرب مع الأعـداء لتمليكهم دار الإسلام وإذلال أهلها، وهذا أشد أنواعها.

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمـون (٢٧) واعلمـوا أنمـا أموالكم وأولادكم فـتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ (الأنفال:٢٧، ٢٨)ـ . . »(١).

هكذا تألـق الوعـى السـيـاسى والشـرعي للشـيخ رشـيد رضـا في هذه الفتوى : . التى أرسى فيها قواعد سياسية وشرعية تستحق الدراسة . .

ـ فالاستعمار الاستيطاني هو أخطر أنواع الاستعمار . . لأن استعمار الفتح والغزو الحربى يسلب الشعوب الملك والحكم لبلادها المستعمرة . . بينما الاستعمار الاستيطاني يسلب ملكية الأرض والملك والحكم جميعا! . . وإزالته والتحرر منه تكون أصعب من إزالة الاستعمار السياسى والحربى . .

ـ والاستـعـمـار الصـهيـونى لفلسطين هو خطر داهم ليس على

(١) المصـدر السـابق . مجلد ٣٣ جـ٤ ص ٢٧٣ـ٢٧٥ عـدد ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ. يونيه سنة ١٩٣٣ م.

فلسطين وحدها، وإنما على الوطن التوراتي اليهودي المزعوم. مصر.. والحجاز.. والأردن.. والعراق أيضا! ـ ومن ثم فإنه خطر داهم على الأمة جمعاء.. ولذلك فإن مواجهته ومجاهدته فريضة إسلامية على الأمة جمعاء..

ـ وبيع الأرض لليهود في فلسطين أو الأردن. لا تبرره أية ضرورة من الضرورات الشرعية وإنما هو أشد أنواع الخيانة لله ولرسوله ولدينه وللأمة كلها..

هذا عن المشهد الفكري والثقافي في بلادنا إزاء هذا الخطر الذي أحدق بالقدس وفلسطين وبالشرق الإسلامي بوجه عام.

غفلة ليبرالية وعلمانية، صنعتها ثقافة التبعية للغرب والانبهار بكل ما يأتي منه.. بل وغض الطرف عن كشف العوار الغربي حتى ولو كان كارثة على وطن العروبة وعالم الإسلام!..

ويقظة إسلامية إزاء هذا الخطر، صنعها الولاء لهوية الأمة، وللوطن الذي هو وعاء هذه الهوية العربية الإسلامية. ـ وهي اليقظة التي قامت «بفريضة الكفاية» في هذا الميدان الفكري والثقافي.

* * *

● أما المَعْلَم الثالث من معالم الساحة الشرقية.. ـ وهو مَعْلَم الموقف السياسي للدول والحكومات في الشرق العربي إزاء هذا المشروع «الصليبي ـ الصهيوني» فلقد كان متفاوتا ما بين «اليقظة» التي وقف خلفها «الوعي بالمصالح الوطنية. واستقلال القرار

السياسي» . . وما بين «الخيانة» التي أثمرتها الغفلة والتفريط والتهافت على الفتات المتساقط من موائد الاستعمار .

ـ وكمثال على هذا الموقف الأول ـ «يقظة الوطنية . . واستقلال القرار السياسي» ـ كان موقف الدولة المصرية في عهد محمد على باشا الكبير [١١٨٤ ـ ١٢٦٥ هـ ١٧٧١ ـ ١٨٤٩م] التي رفضت المشروع اليهودي للاستيطان في فلسطين ، الذي تقدم به المليونير اليهودي الإنجليزي «حاييم مونتفيوري» [١٧٨٤ ـ ١٨٨٥ م] إلى حكومة محمد علي سنة ١٨٣٩ م . . كما رفضت تملك الأمريكان قطعة أرض في القدس ـ بحجة إقامة مدفن لموتاهم عليها ـ سنة ١٨٣٦ م . . رفضت الحكومة المصرية ذلك وعيا منها بالأهداف الاستراتيجية لتخليق الكيانات اليهودية في فلسطين ، وهي الأهداف التي تمثلت في عزل مصر عن المشرق العربي والإسلامي ، للحيلولة دون وحدة الأمة ونهوضها وتقدمها . .

ولهذه الحقيقة ، كان السعي «الصليبي ـ الصهيوني» المضاد . .

فـ«مونتفيوري» ـ الذي رفضت مصر مشروعه الاستيطاني في سنة ١٨٣٩ م ـ هو الذي حصل من وزير الخارجية الإنجليزي «اللورد بالمرستون» في سنة ١٨٤٠ م على وعد «بأن يصبح القناصل الانجليز في الشرق حماة لليهود في الأقطار التركية»![١] .

(١) [إسرائيل هل هي سامية؟] ص ٩٩ .

وعندما نجحت انجلترا ـ ومن ورائها أوربا الاستعمارية ـ في إجبار الجيش المصري على الانسحاب من الشام، وفك عرى وحدة مصر مع المشرق العربي ـ بعد معاهدة لندن سنة ١٨٤١ م ـ رأت الصليبية ـ الصهيونية» في هذه الهزيمة المصرية انتصاراً لمخطط الاغتصاب لفلسطين وتوطين اليهود فيها.. فرحب ثاني رئيس «جمعية التبشير الانجليزية» «أشلي كوبر» (إيرفتسبرى) [١٨٠١ ـ ١٨٨٥ م] «بالانتصار على المصريين في الشام، لأن هذا الانتصار يسهل الاتفاقات الهادفة إلى إقامة دولة اليهود»![1].

كذلك.. حصل «مونتفيورى» سنة ١٨٤٥ م على مشروع استئجار عدد من القرى الفلسطينية ـ وهو المشروع الذى رفضته مصر ـ محمد على باشا ـ سنة ١٨٣٩ م!..

● أما النموذج الثانى لهذه اليقظة الشرقية إزاء هذا الخطر «الصليبي ـ الصهيوني» فهو موقف السلطان العثماني عبد الحميد الثاني [١٢٥٨ ـ ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ ـ ١٩١٨ م] الذى رفض الضغوط الاستعمارية، والإغراءات الصهيونية للتصريح بفتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين.. ويكفى للبرهنة على آثار هذا الموقف ـ ليس فقط الاستشهاد بكلمات السلطان إلى «هرتزل» [١٨٦٠ ـ ١٩٠٤ م] ـ والتي جاء فيها ـ:

---

(١) د. وليم سليمان ـ مجلة [الطليعة] ـ القاهرة ـ عدد ديسمبر سنة ١٩٦٦م

«لا أقدر أن أبيع ولو قدما واحدة من البلاد، لأنها ليست لي، بل لشعبي.. وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا.. ليحتفظ اليهود ببلايينهم، فإذا قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل.. ولن تقسم إلا على جثثنا!»(١).

فغير هذا الموقف «المبدئي.. والنظري» الشجاع للسلطان عبد الحميد - والذي عبر عنه بهذه الكلمات القاطعة - في ١٩ - ٦ - ١٨٩٦م - وبالإضافة إليه - هناك استقراء واقع الوجود اليهودي على أرض فلسطين... والذي ظل وجودا هامشيا طوال وجود الدولة العثمانية..

فرغم فساد «الإدارة» العثمانية.. وحيل القوى الاستعمارية.. وإغراءات الأموال اليهودية.. ولا أخلاقية السماسرة الصهاينة، ظلت نسبة الوجود اليهودي - في العدد.. وفي تملك الأرض - متدنية وهامشية على امتداد ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن..

ففي سنة ١٨٥٢ م كان الوجود اليهودي في فلسطين ٤٪ من سكانها.. وفي سنة ١٩١٨ م - أي بعد قرابة ثلاثة أرباع القرن - لم تزد نسبة اليهود في فلسطين عن ٨٪ من سكانها!..

أما ملكيتهم للأرض - سنة ١٩١٨ م - فلم تتجاوز ٢٪ من مساحة أرض فلسطين!..

---

(١) [ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية] جـ١ ص ٦٦

وتلك شهادة ـ «عملية» ـ إلى جانب الموقف الفكرى والسياسى ـ «المبدئى» ـ المعبر عن الوعى العثمانى بخطر هذا المشروع «الصليبى ـ الصهيونى» لا على فلسطين وحدها، وإنما على «الدولة العثمانية» كلها، كما قال ـ بحق ـ الشيخ محمد رشيد رضا سنة ١٩١٠!..

كما تدل هذه الحقيقة ـ أيضا ـ على أن الاستعمار الإنجليزى وإن نجح فى اللعب على التناقضات بين الدولة العثمانية وبين الدولة المصرية ـ فى عهد محمد على باشا الكبير ـ عندما انحاز إلى العثمانيين ضد مشروع محمد على باشا.. إلا أن هذا الاستعمار لم ينجح فى الوصول بهذه «اللعبة» إلى مقاصدها النهائية.. وهى جعل العثمانيين يفتحون أبواب فلسطين لليهود، بدعوى أن وجودهم فيها هو «العقبة أمام أهداف محمد على أو من يخلفه»!.

* * *

• أما نموذج «خيانة الغفلة» فلقد تمثل فى المفاوضات التى دارت بين الأمير «فيصل بن الحسين» [١٣٠٠ - ١٣٥٢هـ ١٨٨٣ ـ ١٩٣٣ م] وبين رئيس المنظمة الصهيونية العالمية «حاييم وايزمان» [١٨٦٤ ـ ١٩٥٢ م] والتى انتهت بتسليم الأمير «فيصل» بوعد بلفور.. وبأن فلسطين يهودية، خارجة عن نطاق «الدولة العربية» التى نادى بها والده ـ الشريف «حسين بن على» [١٢٧٠ ـ ١٣٥٠ هـ ـ ١٨٥٤ ـ

١٩٣١ م] لقاء تعاونه مع الإنجليز، وثورته ضد الدولة العثمانية سنة ١٩١٦ م. .

لقد سبق للشيخ رشيد رضا أن فاوض زعماء الصهيونية ـ قبل الحرب العالمية الأولى. . وقبل صدور وعد بلفور ـ ثم فاوض «وايزمان» بعد الحرب العالمية، وبعد صدور وعد بلفور. . ولكنه كان يفاوض ليطالب من اليهود أن يتخلوا عن حلفهم غير المقدس مع الاستعمار الغربي، مقابل أن يعيشوا مع العرب والمسلمين «أحرارا آمنين متمتعين بما يتمتع به سائر أهل البلاد العربية من الحقوق المدنية والشخصية. وأن يتفقوا مع زعماء العرب أنفسهم على ذلك. .».

أما مفاوضات «فيصل ـ وايزمان» فإنها قد انتهت إلى «اتفاق» على إخراج فلسطين من الإطار العربي، والتسليم بأنها يهودية، تقوم بينها وبين الدولة العربية علاقات تعاون وحسن جوار!! .

وقد تم تقنين هذه المفاوضات وهذه التنازلات في الاتفاق الذي وقع في ٣ يناير سنة ١٩١٩ م. . والذي جاء فيه:

«صاحب السمو الملكي الأمير فيصل، ممثل ويعمل لصالح مملكة الحجاز العربية. والدكتور حاييم وايزمان، ممثل ويعمل لصالح الجمعية الصهيونية.

مع ذكرهما القرابة العنصرية، والروابط القديمة الكائنة بين العرب واليهود، وإدراكهما أن أضمن وسيلة لتحقيق أمانيهم القومية هي التعاون لترقية الدولة العربية، وفلسطين.

وبما أنهما يرغبان ـ زيادة على ذلك ـ في تأييد التفاهم الطيب القائم بينهما، اتفقا على المواد التالية:

المادة الأولى: يجب أن تسود الدولة العربية وفلسطين، في جميع علاقاتهما، وأعمالهما روح تفاهم تام قائم على أساس الإخلاص وحسن النية. ولهذه الغاية يوفد ممثلون عرب ويهود مفوضون تفويضا رسميا إلى كل من البلدين.

المادة الثانية: تخطط الحدود النهائية بين الدولة العربية وفلسطين بواسطة لجنة يتفق عليها الفريقان حالما تتم مفاوضات مؤتمر السلام.

المادة الثالثة: تؤخذ جميع التدابير، وتعطى أفضل الضمانات لتطبيق تصريح الحكومة البريطانية الصادر في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧م ـ [أي وعد بلفور] ـ حين وضع دستور حكومة فلسطين ونظامها الإداري.

المادة الرابعة: تتخذ كل التدابير لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وتقويتها بمقياس كبير، ويسرع على قدر ما تسمح به الظروف في إسكان المهاجرين في الأراضي، وتصان حقوق الفلاحين العرب، ويساعدون في تقدمهم الاقتصادي.

المادة الخامسة: لا يوضع نظام أو قانون يمنع أو يحول بأية طريقة دون ممارسة الأديان بحرية كاملة، ويسمح أيضا بدون قيد أو شرط بحرية

العقائد والعبادات بدون تمييز أو تفضيل. وتمارس الحقوق المدنية والسياسية.

المادة السادسة: تكون المقدسات الإسلامية تحت إشراف إسلامي.

المادة السابعة: ترسل الجمعية الصهيونية إلى فلسطين لجنة من الخبراء لدرس قابلية البلاد الاقتصادية، وتقديم تقرير عن أفضل الوسائل لتحسينها. وتضع الجمعية الصهيونية هذه اللجنة تحت تصرف الحكومة العربية، وتستخدم الجمعية الصهيونية خير جهودها لمساعدة الحكومة العربية في إعداد الوسائل لتحسين الموارد الطبيعية والقابلية الاقتصادية في بلادها.

المادة الثامنة: تحكم الدولة البريطانية في كل خلاف يبدو خلال تطبيق أحكام هذا الاتفاق».

* * *

ففي هذا الاتفاق:

١ ـ تسليم بأن فلسطين يهودية.. يمثلها سفراء يهود معتمدون لدى الدولة العربية!.

٢ ـ وتسليم بوعد بلفور، الذي ينص على إقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين!.

٣ ـ وتجاهل لوجود الشعب الفلسطيني.. والاكتفاء بالإشارة إلى «حقوق الفلاحين العرب»؛ دون حتى إشارة إلى أنواع تلك الحقوق!.. وهل لهم حقوق سياسية أم لا؟!..

٤ ـ وتسليم بأن المقدسات الإسلامية هي تحت «الإشراف الإسلامي» وليست تحت «السيادة الإسلامية والعربية»!.

٥ ـ والتسليم بأن انجلترا ـ العدو للعرب .. والشريك للصهيونية ـ هي القاضي والحكم في النزاعات التي تنشأ أثناء تطبيقات هذا الاتفاق!.

٦ ـ وأخيرا فتح أبواب الهيمنة الاقتصادية الصهيونية، لا على فلسطين وحدها، وإنما أيضا على الدولة العربية!!..

ولقد أضاف الأمير فيصل إلى ذيل هذا الاتفاق «حاشية شخصية»، لم يقل «وايزمان» ولم يوقع بالموافقة عليها أو الالتزام بها.. أضاف فيصل هذه العبارة:

«إن نال العرب استقلالهم وفقا للمطالب التي تضمنتها مذكرتي إلى وزارة الخارجية البريطانية، كان ذلك الاتفاق صالحا. وإن رفضت هذه المطالب، كلها أو بعضها، أعتبر نفسي طليقا من كل قيد. وأعتبر هذا الاتفاق لاغيا».

وبعد شهرين من عقد هذا «الاتفاق» عززه الأمير فيصل بخطاب يحمل مضمونه إلى القاضي الصهيوني الأمريكي «فيلكس فرانكفورتر» عضو الوفد الصهيوني إلى مؤتمر «فرساي» بفرنسا»[1].

وإذا كان «الشريف حسين» ـ والد الأمير فيصل ـ قد وصف موقف

---

(١) [إسرائيل هل هي سامية؟] ص ١٤٦ ـ ١٤٩.

ابنه في هذا «الاتفاق» بقوله: «إن فيصل قادر على أن يبيع نفسه نظير صحن من العدس»!![1] . . فإن فيصل هنا، لم يكن يبيع «نفسه» . . وإنما كان يبيع وطنا مقدسا . . هو القدس وفلسطين!! . .

* * *

● أما نموذج «العجز والتبعية» . . العجز أمام الاستعمار والتبعية لسياسته. فهو ذلك الذي اتخذه الملوك والقادة العرب من الثورة الفلسطينية التي اندلعت سنة ١٩٣٦ م . . ففي أثناء أحداث هذه الثورة ـ التي استمرت ثلاث سنوات [١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ م]ـ وجدنا كوكبة من الملوك والأمراء العرب الذين ارتبطت عروشهم ومصالحهم بالاستعمار يستخدمون نفوذهم في إنهاء هذه الثورة، لتهدأ الأجواء لإنجلترا كي تواجه خطر ألمانيا النازية التي كانت تهم باجتياح أوربا في ذلك التاريخ . .

لقد سخر الملوك والرؤساء العرب نفوذهم لخدمة الاستعمار الإنجليزي ـ ومعه الصهيونية ـ ضد الثورة الفلسطينية . . وذلك عندما وجهوا نداءهم إلى الثوار لإنهاء ثورتهم، والاعتماد على حسن نوايا الاستعمار! . . ولقد جاء في هذا النداء ـ الذي وجهه ملوك وأمراء السعودية واليمن والعراق وشرق الأردن ـ:

---

(١) المرجع السابق. ص ١٥٠.

«إلى أبنائنا عرب فلسطين:

لقد تألمنا كثيرا للحالة السائدة في فلسطين. فنحن، بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله، ندعوكم للإخلاد للسكينة، حقنًا للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية، ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل. وثقوا بأننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم».[1]

* * *

هكذا تنوعت المشاهد على الساحة الشرقية - العربية والإسلامية - ما بين «اليقظة» و«الغفلة».. وما بين «وعي الاستقلال الوطني» و«تفريط الخيانة والعجز والتبعية».. بينما كان النشاط المحموم «للصليبية - الصهيونية» دائما ودائبا لاغتصاب القدس وفلسطين!..

● فالإسلاميون، الذين كان ولاؤهم لهوية الأمة، كانوا الأكثر وعيا بمقاصد ومخاطر هذا المخطط «الصليبي - الصهيوني» على القدس وفلسطين.. وعلى الوطن العربي وعالم الإسلام..

● والحكومات والدول صاحبة الوعي السياسي، والاستقلال في اتخاذ القرار، كانت واعية بمخاطر هذا المخطط على الوطن الإسلامي، الذي هو وعاء الهوية الإسلامية للعرب والمسلمين..

● أما المثقفون والساسة «الليبراليون» - [الذين كانوا يسمون

(١) المرجع السابق، ص ١٥٦.

الأحرار!] فلقد أصابتهم الغفلة إزاء هذا الخطر، وأعمتهم التبعية الثقافية عن إدراك المخاطر القادمة من المراكز الغربية، التي يكنون لها المحبة والولاء.. والتي ينبهرون بكل ما يفد منها إلى عالم الإسلام!..

● وكذلك كانت الغفلة - وأحيانا الخيانة - للحكام الذين وثقوا بالمستعمر «واعتمدوا على حسن نوايا صديقتهم الحكومة البريطانية، ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل»!..

ولا تزال هذه الغفلة سائدة حتى يومنا هذا في الدوائر التي تشكو من الاستعمار إلى الاستعمار! وتستجدى الأرض من لصوص الأرض!.. مديرة الظهر للرصيد الحقيقي.. والقوة الحقيقية في هذا الصراع.. رصيد الأمة.. وقوة ثقافة الجهاد والفداء والاستشهاد.. التي مثلت - عبر تاريخنا - ولا تزال تمثل إحدى المعجزات المتجددة لدين الإسلام.

-٧-

المشهـد الفلسطيني

أما الموقف الفلسطيني - وخاصة بعد وضع المشروع الصهيوني في الممارسة والتطبيق - بقوة الاحتلال الإنجليزي سنة ١٩١٧ م - الذي أعطته «عصبة الأمم» شرعية التنفيذ لوعد «بلفور» . فلقد تحرك - هذا الموقف الفلسطيني - بالرفض والغضب . والتنظيمات الوطنية والإسلامية والاحتجاجات والإضرابات والاضطرابات . . ثم بسلوك طريق الجهاد في سبيل إنقاذ القدس وفلسطين . .

● ففي سنة ١٩١٩ م قرر «المؤتمر القومي» المنعقد بمدينة القدس، التمسك بعروبة فلسطين وقرر أن هذه القطعة من الوطن العربي إنما تكون «سورية الجنوبية» . وقرر رفض مزاعم الصهيونيين بجعل فلسطين وطنا قوميا لليهود، أو محل هجرة لهم . .

ولقد اتخذ المؤتمر القومي العربي الأول هذا القرار في نفس العام الذي عقد فيه «الأمير فيصل» اتفاقه الذي أشرنا إليه مع «حاييم وايزمان» ! .

● وفي أبريل سنة ١٩٢٠ م اتخذت المقاومة العربية لهذا المخطط

«الصليبي ـ الصهيوني» شكل الاضطرابات ذات الطابع العنيف، وشهدت مدينة القدس، في ذلك التاريخ، بعض هذه الاضطرابات . .

- وفي ديسمبر سنة ١٩٢٠ م انعقد المؤتمر الفلسطيني الثالث في «حيفا» ليعبئ المشاعر القومية ضد مخطط الصهيونية والاستعمار . .

- وفي مايو سنة ١٩٢١ م وقعت في مدينة «يافا» اضطرابات دامية دامت خمسة عشر يوما . .

- وفي يونيو سنة ١٩٢١ م عقد في القدس المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع، الذي ترسم خطى المؤتمر الأول فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية . .

- وفي ٢ نوفمبر سنة ١٩٢١ م ـ وهي ذكرى وعد بلفور ـ تجددت ـ ثانية ـ الاضطرابات الدامية في مدينة القدس ضد الانتداب البريطاني وضد الصهاينة . .

- وفي مارس سنة ١٩٢٤ م تجددت الاضطرابات . . وحدثت هذه المرة في مدينة «يافا» . .

- وفي أغسطس سنة ١٩٢٩ كان سيل الهجرة اليهودية قد أخذ يتدفق على فلسطين . . وأخذت الصهيونية تطبق خطة «تضييق الخناق على عرب فلسطين حتى يضطروهم إلى الهروب»!! . . وهي الخطة التي سبق ورسمها زعماء اليهود في بيانهم الذي أصدروه سنة

١٨٨٢ م وذلك حتى تصبح فلسطين كما تريد الصهيونية ـ وكما تزعم ـ «أرضا بلا شعب، فتكون لشعب بلا أرض»!!..

وعندئذ ـ ويومئذ ـ عمت فلسطين موجة من أعمال العنف المسلح، راح ضحيتها ووقوداً لها نحو ٢٠٠ (مائتين) من الصهاينة، التهمتهم نيران هذه الاضطرابات..

• وفى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٣١ م أعلن عرب فلسطين الإضراب، إعلانا عن وحدتهم القومية فى مواجهة المخاطر التى تزايدت، والتى تهدد عروبة وإسلامية القدس وفلسطين..

• وفى سنة ١٩٣٣ م كانت العصابات الصهيونية المسلحة قد بدأت فى ممارسة أعمالها، فقامت الثورة العربية الثالثة ضد الإنجليز وضد هذه العصابات الصهيونية «الهجناه» و«أرجون زفاى ليومى»، و«شترن»، التى كانت تمثل القوة الضاربة للصهيونيين..

• وفى أغسطس سنة ١٩٢٩ م ـ وفى حماية سلطات الاحتلال الإنجليزى التى تحكم فلسطين ـ حدث تطور «نوعى» عندما مدت الصهيونية أعينها إلى ما وراء الأرض الفلسطينية.. فطامعت إلى اغتصاب المقدسات الإسلامية أيضا، وبدأت هذا المسعى بمحاولات وضع أقدامها على حائط البراق ـ الذى أسموه «حائط المبكى»!.. ليكون سبيلهم إلى إزالة المسجد الأقصى، وإقامة الهيكل على أنقاضه.. ولقد ساعدتهم على ذلك سلطات الاحتلال الانجليزى، ذات العقيدة البروتستانتية ـ الانجليكانية ـ التى ترى فى تحقيق هذه

الأحلام الصهيونية شرطا من شروط عودة المسيح عليه السلام ليحكم الأرض ألف سنة سعيدة! . .

ويومئذ انتفض الشعب الفلسطيني بالإضرابات والاضطرابات . . ورغم أن اللجنة التي عينتها «عصبة الأمم» للفصل في هذا النزاع قد قدمت تقريرها في ديسمبر سنة ١٩٣٠ م وخلصت فيه إلى : أن «للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي [حائط البراق] - ولهم وحدهم الحق العيني فيه، لكونه يؤلف جزءا لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف، التي هي أملاك الوقف. وللمسلمين أيضا، تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة المقابلة للحائط، لكونه موقوفا، حسب أحكام الشرع الإسلامي، ولجهات البر والخير»(١) .

رغم ذلك، استمرت سلطات الاحتلال الانجليزي في التمكين للمخططات «الصهيونية - الصليبية» على أرض القدس وفلسطين .

• فكانت موجة جديدة من الاحتجاجات والإضرابات والاضطرابات العنيفة التي جعلت الشعب الفلسطيني ينخرط في أطول إضراب شهدته البلاد امتد ثلاث سنوات . . من سنة ١٩٣٦ م حتى سنة ١٩٣٨ م . ولم يتوقف إلا بإجهاض الحكام العرب له . عندما تعاونوا مع انجلترا على تهدئة الأوضاع في فلسطين، كي تفرغ

---

(١) [ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية] جـ١ ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

إنجلترا للاستعداد لنذر الحرب العالمية الثانية التي كانت تلوح في الآفاق!.

• وخلال هذه الموجة من الإضرابات والاضطرابات، تخلق على أرض فلسطين تنظيم جهادي سري، رأى ضرورة الانطلاق من مدرسة الإسلام في الفداء والاستشهاد، لأن خريجي هذه المدرسة وجنودها هم الذين سبق لهم - تاريخياً - التصدي لكل الأحلام الصليبية والاستعمارية على أرض فلسطين..

ففي مدرسة الجهاد هذه تعلم المسلمون ويتعلمون أن الإذن بالقتال.. والأمر بالقتال.. والتحريض على القتال وقف وخاص لرد عدوان الذين يخرجون المسلمين من ديارهم، أو يظاهرون ويساعدون على إخراجهم من ديارهم، أو يفتنونهم في دينهم بالعدوان على مقدساتهم ﴿الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لهُدمت صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسمُ الله كثيراً ولينصرنَّ اللهُ من ينصرهُ إنَّ الله لقويٌّ عزيزٌ﴾ (الحج ٣٩-٤٠). ﴿واقتلوهم حيثُ ثقفتموهم وأخرجوهم من حيثُ أخرجوكم والفتنةُ أشدُّ من القتل﴾ (البقرة ١٩٠-١٩١). ﴿لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتُقسطوا إليهم إن الله يُحبُ المقسطين (٨) إنما ينهاكم اللهُ عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ (الممتحنة ٨-٩).

ولقد وجبت على أرض فلسطين وفى شعبها فريضة الجهاد القتالى لكل هذه الأسباب.. فاليهود يخرجون المسلمين من ديارهم بالاستعمار الاستيطانى، وهم يفتنون المسلمين فى دينهم بالعدوان على مقدساتهم.. والسلطات الاستعمارية الصليبية تظاهر وتساعد اليهود على إخراج المسلمين من ديارهم وفتنتهم فى دينهم.

وزاد من مبررات قناعة هذا الفصيل الجهادى الفلسطينى بأن طريق الجهاد والفداء والاستشهاد قد تعين وتأكد، حقيقة أن الصهاينة هم ﴿ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾.. وأنهم قتلة الأنبياء ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ٦١).

ولقد عادت الذاكرة الإسلامية بهذا الفصيل الجهادى إلى صدر الإسلام.. وإلى منهاج الإسلام فى تربية المجاهدين، يوم كان المسجد هو الميدان الذى يتربى فيه أبطال الفداء والاستشهاد.. ويوم كان قيام الليل هو صانع المجاهدين الذين هم ﴿ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ والذين ينهضون - لذلك.. مع قلة العدد والعدة - بالحمل الجهادى الثقيل ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ① قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ④ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑤ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ (المزمل ١ : ٦).

عادت ذاكرة الفصيل الجهادى الفلسطينى إلى معالم هذه المدرسة

الجهادية الإسلامية الأولى، وإلى أسوتها الحسنة، خاتم الأنبياء والمرسلين، وإمام المجاهدين، محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، ورأوا كيف كان موقف القلة المؤمنة التي تخرجت من هذه المدرسة أمام أحزاب الشرك والضلال المتفوقة في العدد والعتاد ـ والتي تحالفت يومها أيضا مع اليهود! ـ ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا (٢١) ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما (٢٢) من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ (الأحزاب ٢١ ـ ٢٣).

إنه الطريق الوحيد المفضي إلى إحدى الحسنيين: النصر وقهر العدو وتحرير القدس وفلسطين.. أو الشهادة التي لا يعدلها مقام في المثل العليا للمؤمنين بالإسلام.. وكيف لا!.. و«الشهيد» اسم من أسماء الله، سبحانه وتعالى.. والشهيد: هو الذي يقتل في سبيل الله، سمي بذلك لأن الملائكة تشهده وتحضره ساعة استشهاده.. ولأنه ـ أيضا ـ يشهد ما أعده الله له من النعيم المقيم عند أول قطرة دم تسيل من جسده!.. إن أعداءه أموات حتى ولو كانوا ﴿أحرص الناس على حياة﴾ ـ أية حياة!... بينما الشهيد حي عند مولاه حتى ولو غادر هذه الحياة الدنيا إلى الدار التي هي خير وأبقى ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون (١٦٩) فرحين بما آتاهم الله

من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٧٠) يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين (١٧١) الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم (١٧٢) الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١٧٣) فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ (آل عمران: ١٦٩-١٧٤)..

إنهم إن انتصروا، وحرروا القدس وفلسطين، فسيكونون على درب عمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م] وأبو عبيدة بن الجراح [٤٠ ق هـ - ١٨ هـ ٥٨٤ - ٦٣٩ م] - أمين الأمة... وصلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ ١١٣٧ - ١١٩٣ م] بطل الإسلام.. وإن كانت الشهادة فسيكونون ﴿مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (٦٩) ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما﴾ (النساء: ٦٩-٧٠) ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ (الحديد: ١٩).

إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو إمام المجاهدين، يقول «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد». رواه

الترمذى - . . ويقول : «ما من مسلم يُظلم بمظلمة فيقاتل فيُقتل إلا قُتل شهيدا» - رواه الإمام أحمد - . . فما بالنا إذا كانت المظلمة قد وقعت على الأرض التى بارك الله فيها وحولها - القدس وفلسطين - وعلى ما فيها من أهل ومال ودماء زكية . . جاءت «الصليبية - الصهيونية» لتغتصب الأرض المقدسة . . ولتخرج أهلها منها ولتفتنهم فى دينهم، بتدنيس المقدسات واغتصابها . . ولتسيل من المسلمين الدماء على الأرض التى حررها «الفاروق» و«أمين الأمة» و«صلاح الدين»! . .

إن الشهادة - فى هذه المدرسة الجهادية - هى الطريق . . وهى ليست فقط مرغوبة ومحبوبة . . بل إن تكرارها مرغوب ومحبوب . . ألم يقل رسولنا، صلى الله عليه وسلم «والذى نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل،ثم أغزو فأُقتل» - رواه البخارى ومسلم - . وقال - أيضا : ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يخرج منها، وإن له ما على الأرض من شيء، غير الشهيد، يحب أن يخرج فيُقتل لما يرى من الكرامة ومن فضل الشهادة» - رواه البخارى ومسلم - . .

فى مدرسة الجهاد والاستشهاد والفداء هذه، تخلقت طلائع الجهاد والاستشهاد على أرض فلسطين، إبان الإضرابات والاضطرابات التى عمت الأرض المقدسة سنة ١٩٣٥ م . .

ولقد حاولت هذه المدرسة الجهادية - منذ ذلك التاريخ - أن

تستخلص القضية الفلسطينية للشعب والأمة.. وأن تنقذها من عبث النظم والحكومات التي غدت أسيرة للعجز والتبعية.. والتي تشكو من الاستعمار إلى الاستعمار!.. والتي تستجدي تحرير الأرض من لصوص الأرض!!..

وكان ذلك التوجه الجهادي، إعلانا إسلاميا على أن الجهاد هو الطريق الوحيد لاستخلاص الحق السليب في القدس وفلسطين.

ولقد كانت اللحظة التي تخلّق فيها هذا الفصيل الجهادي - على أرض فلسطين - لحظة فارقة في تاريخ هذا الصراع التاريخي حول هذه الأرض المباركة ومقدساتها.

ـ ٨ ـ

التنظيمات الجهادية

ولقد شاء الله، سبحانه وتعالى، أن يكون قائد الطليعة الجهادية، التي تبلورت على أرض فلسطين في ثلاثينيات القرن العشرين، مجسد الحقيقة: أن فلسطين ـ كل فلسطين ـ هي «وقف إسلامي لكل أمة الإسلام».. وأن قضية القدس ـ التي هي أولى القبلتين وثالث الحرمين ـ هي قضية كل المسلمين ـ في فلسطين وغير فلسطين. فكان الشيخ محمد عز الدين القسام [١٣٠٠ ـ ١٣٥٤هـ ١٨٨٢ ـ ١٩٣٥م] من مواليد «جبلة» باللاذقية ـ في سوريا.. ومن خريجي الأزهر الشريف ـ بمصر.. ومن الذين نزحوا إلى حيفا ـ بفلسطين ـ سنة ١٩٢٠ ـ بعد أن ثار ـ مع جماعة من تلاميذه ـ على الفرنسيين الذين احتلوا ساحل سوريا سنة ١٩١٨، فطاردوه، فذهب إلى دمشق.. وبعد احتلالها غادرها إلى حيفا ـ بفلسطين ـ فهو ابن الإسلام، المنتمي إلى أمة الإسلام، والمجاهد في سبيل تحرير دار الإسلام.. وهاهو قد ذهب إلى الأرض التي بارك الله فيها.. فتولى الإمامة والخطابة بجامع الاستقلال ـ بحيفا ـ الذي سيكون مدرسة «لناشئة الليل».. كما رأس جمعية الشبان المسلمين.. وعمل

بالمحكمة الشرعية.. وانضم إلى فرع "حزب الاستقلال" بحيفا سنة ١٩٣٢م..

وبعد الأحداث التي تفجرت سنة ١٩٣٣م بين الشعب الفلسطيني وبين سلطات الاحتلال الانجليزي والصهاينة، بدأ القسام - من الحي القديم بحيفا، حيث يسكن الفقراء الذين ذهبوا ضحايا الاستيطان الصهيوني - تكوين التنظيم الجهادي السري لمحاربة "الصليبية - الصهيونية" في فلسطين.. ومن هؤلاء الفقراء الذين عمل القسام على توعيتهم بثقافة الجهاد الإسلامي، كما عمل على محو أميتهم، وتحسين أحوال معيشتهم، بدأ يتخلق أول تنظيم جهادي حديث على أرض فلسطين.. ولقد نظم القسام هذا التنظيم السري الجهادي إلى أربع لجان:

١ - لجنة الدعوة والدعاية.

٢ - ولجنة التدريب العسكري للمجاهدين المقاتلين.

٣ - ولجنة التموين والإمدادات.

٤ - ولجنة الاستخبارات وجمع المعلومات.

ولقد جند القسام نحو ٢٠٠ من المدربين على حمل السلاح، الذين دربهم في الخلاء، بعيدا عن أعين الصهاينة وسلطات الاحتلال.. كما نظم نحوا من ٨٠٠ من الأنصار الداعمين للجهاد..

غير أن توالي الاضطرابات، وتسارع الأحداث وتفجر المصادمات - بين الفلسطينيين وسلطات الاحتلال الإنجليزي - سنة ١٩٣٥م،

اضطر القسام إلى التعجيل بإعلان ثورته، قبل تكوين القوة القادرة على الصمود الطويل.. فكان أن غادر حيفا في الثاني والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٣٥ م، ومعه ٣٥ من أنصاره المسلحين، قاصدين إلى ضواحي «جنين» على أمل الالتفاف بالفلاحين في تلك المنطقة، ودعوتهم إلى حمل السلاح ومقاتلة الإنجليز والصهاينة.. لكن القوات الإنجليزية عاجلته قبل الالتحام بأنصاره وتعبئتهم، وأجبرته - لإجهاض ثورته - على أن يخوض، بمجموعته الصغيرة، معركة غير متكافئة في غابة «يعبد» بمنطقة جنين في التاسع عشر من نوفمبر سنة ١٩٣٥ م.. حيث نال الشهادة، التي فتحت طريق الجهاد والفداء والاستشهاد لتحرير القدس وفلسطين..

ولقد خرجت جماهير الشعب الفلسطيني لتشيع جثمان الشهيد عز الدين القسام، كما لم تخرج في جنازة من الجنازات.. ودفن في قرية «الشيخ» بجوار حيفا.. ولقد تحولت جنازة القسام إلى مظاهرة رشقت قوات الاحتلال الإنجليزي بالحجارة، وهتفت بسقوط الاستعمار والوطن القومي اليهودي - الذي قرره وعد «بلفور» سنة ١٩١٧، والذي يقوم الاستعمار الانجليزي بتحقيقه على أرض فلسطين - وتحول الشهيد القسام إلى رمز للتضحية والفداء والاستشهاد.. وغدت ثورته برهانا على عقم أساليب السياسيين المساومين الذين يشكون من الاستعمار إلى الاستعمار!، ويستجدون الأرض من لصوص الأرض!.. حتى إن هؤلاء السياسيين المحترفين لم يجرؤوا على الظهور أمام الجماهير في جنازة الشهيد عز الدين القسام!..

وهكذا فتح الشهيد البطل محمد عز الدين القسام ـ شيخ ثوار فلسطين ـ باب مدرسة الجهاد وطريق الاستشهاد أمام شعب فلسطين ـ في العصر الحديث ـ فغدا القدوة والأسوة والنموذج منذ ذلك التاريخ..

* * *

ولأن المخاطر قد تزايدت، والتحديات قد تصاعدت.

فاليهود الذين كان تعدادهم على أرض فلسطين ـ المتجنسون.. وليس الزائرين ـ في سنة ١٩١٤ م، لا يتجاوز ٣٩٠٠٠ (تسعة وثلاثين ألف نسمة).. وصل تعدادهم ـ بتشجيع الاستعمار الغربي ـ بقيادة الإنجليز ـ في سنة ١٩٤٨ م إلى ٦٨٦٠٠٠ نسمة (ستمائة وستة وثمانين ألف نسمة).. فزادت نسبتهم إلى مجموع سكان فلسطين من ٨٪ سنة ١٩١٨ م إلى ٣١٪ سنة ١٩٤٨ م..

وبعد أن كانت ملكيتهم في أرض فلسطين نصف مليون دونم ـ أي ٢٪ من مساحة أرض فلسطين ـ زادها الاستعمار والاستيطان، فبلغت سنة ١٩٤٨ م ١,٨٠٠,٠٠٠ دونم ـ أي ٦,٧٪ من أرض فلسطين.

● وزاد الطين بلة.. وأضاف إلى الكارثة كوارث عديدة، قرار التقسيم، الذي أصدرته الأمم المتحدة ـ بضغط من أمريكا وقوى الاستعمار العالمي ـ في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ م.. عندما أعطى اليهود ـ الذين يملكون ٦,٧٪ من الأرض ـ أعطاهم الحق في دولة

مساحتها ٥٤٪ من أرض فلسطين!! . بينما ترك للعرب ـ الذين يملكون ٩٣,٣٪ من الأرض ـ فقط ٤٥٪ من هذه الأرض!! . وترك ـ هذا القرار ـ ١٪ من الأرض هي مساحة القدس، التي أراد لها «التدويل»!! . .

● وكانت النكبة الأخرى، هي وضع القضية الفلسطينية بيد النظم والحكومات العربية ـ التي تقع هي وبلادها تحت الاحتلال ـ والتي تعيش أسيرة لثالوث العجز والفساد والتبعية لمراكز الهيمنة الغربية ـ الصليبية ـ الصهيونية ـ الداعمة للمشروع الصهيوني على أرض فلسطين.

لقد نزعوا سلاح الشعب الفلسطيني، وأدخلوا إلى فلسطين جيوشا عربية ـ سنة ١٩٤٨ م ـ بعضها يقوده الإنجليز بشكل سافر ومباشر . . وبعضها تقوده حكومات عميلة . . أو تابعة . . أو عاجزة . . فكانت النكبة التي خرج منها الكيان الصهيوني بمكاسب أكبر مما أعطاه قرار التقسيم! .

● فلما كانت نكبة هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ م، عممت بلوى الاغتصاب «الصهيوني ـ الصليبي» كل أرض فلسطين، وكثيرا من مساحات الدول العربية المحيطة بفلسطين . . وأصبح الشعب الفلسطيني موزعا بين لاجئين يعيشون حياة القهر واليأس والإحباط في المخيمات خارج فلسطين . . وبين مقهورين يعيشون تحت نير الاحتلال الصهيوني على أرض فلسطين .

* * *

لكن لله سننا لا تتبدل.. وقوانين حاكمة في الكون والاجتماع.. ومن هذه السنن والقوانين سنّة ﴿وإن تتولّوا يستبدل قومًا غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم﴾ (محمد: ٣٨)..

فكما كان للسياسات العبثية نظم وحكومات، أجهضت ثورة الشعب الفلسطيني في ثلاثينيات القرن العشرين.. وفتحت الأبواب لنكبة الأربعينيات.. ونكبة الستينيات.. فلقد كان لطريق الفداء والجهاد والاستشهاد مدرسته ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ (الأحزاب: ٢٣).

● فبعد ستة أشهر من استشهاد الشيخ محمد عز الدين القسام، ولد الرجل الذي أراد له الله سبحانه وتعالى، أن يواصل طريق الجهاد والفداء والاستشهاد لتحرير القدس وفلسطين، والذي سيعيد القضية الفلسطينية إلى قبضة الشعب الفلسطيني.. ولد الشيخ أحمد إسماعيل حسن ياسين [١٣٥٥ - ١٤٢٥هـ ١٩٣٦ - ٢٠٠٤ م].. ولد في قرية «الجورة»، بالقرب من «عسقلان»، في يونيو سنة ١٩٣٦ م. [ربيع الثاني سنة ١٣٥٥ هـ].. ولد أحمد ياسين لأسرة كانت من أغنى أسر «الجورة».. ولد ورايات ثورة الشهيد عز الدين القسام تبحث عمن يحملها ليواصل الطريق..

ولقد شاء الله، سبحانه وتعالى، أن يكون هذا المولود أحمد ياسين هو حامل هذه الرايات، الذي سيواصل طريق الجهاد.. طريق عز

الدين القسام.. بل والذى سيحول اسم «القسام» إلى كتيبة من كتائب الفداء والاستشهاد.. وإلى عنوان على الصواريخ والقذائف والقنابل الاستشهادية «الحية» التي تصنعها ثقافة الفداء والاستشهاد، والتي يحملها المجاهدون في سبيل تحرير الأرض التي بارك الله فيها وحولها.. أرض الإسراء والمعراج.. القدس وفلسطين..

شاء الله، سبحانه وتعالى، بميلاد هذا الشيخ أحمد ياسين، أن يجسد على أرض فلسطين آية من آيات الإسلام، وتجليا من تجليات الإرادة الإلهية ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (القصص٥: ٦).

ولد الرجل الذى تميز - من بين المجاهدين الفلسطينيين - بجعل الإسلام والجهاد الإسلامي والفداء والاستشهاد هو المرجعية والسبيل إلى تحرير القدس وفلسطين.

لقد تربى الطفل أحمد ياسين يتيما.. فوالده - إسماعيل حسن ياسين - توفى وعمره خمس سنوات ولقد أدخلته أمه مدرسة «الجورة» الابتدائية، فواصل تعليمه فيها حتى الصف الخامس.. وكان ترتيبه دائما ضمن الخمسة الأوائل..

● وفي عام النكبة الفلسطينية الكبرى - سنة ١٩٤٨ م - كان عمر الفتى أحمد ياسين اثني عشر عاما.. ولذلك فلقد شهد بعينيه؛ ووعى بعقله، وأيقن بقلبه كل أبعاد الدرس الذى أدركه سلفه الشيخ محمد

عز الدين القسام: أن ضياع فلسطين يكرسه ترك قضيتها بيد النظم والحكومات العربية، ومساومات هذه الحكومات مع «الصليبية ـ الصهيونية» صانعة هذه المأساة.. وإن طريق الجهاد، الذى يكون الشعب الفلسطينى طليعته، هو الطريق الحقيقى والوحيد لتحرير القدس وفلسطين..

ولقد ميز الفتى أحمد ياسين ـ يومئذ ـ بين إخلاص الشعوب العربية والإسلامية لقضية فلسطين، وبين خيانات النظم والحكومات، وذلك عندما شاهد بطولات الجيش المصرى، ثم رأى الأوامر العليا لهذا الجيش بالانسحاب!.. وعندما شاهد آثار الخيانات التى كشفت ظهر هذا الجيش الوطنى لنيران الأعداء!..

وكان الدرس الأكبر الذى وعاه، هو أن عزل شعب فلسطين عن قضيته هو السبيل لتكريس الاغتصاب الصهيونى لها.. بينما أخذ هذا الشعب قضيته بيديه، ودعمه عربيا وإسلاميا، هو طريق التحرير.. أدرك أحمد ياسين هذا الدرس المحورى فى تاريخ كل حركات التحرر الوطنى.. وقال عنه:

«لقد نزعت الجيوش العربية التى جاءت تحارب إسرائيل، السلاح من أيدينا بحجة أنه لا ينبغى وجود قوات أخرى غير قوة الجيوش، فارتبط مصيرنا بها، ولما هزمت هزمنا، وراحت العصابات الصهيونية ترتكب المجازر والمذابح لترويع الآمنين، ولو كانت أسلحتنا بأيدينا لتغيرت مجريات الأحداث».

● وبهذه النكبة الكبرى ـ سنة ١٩٤٨ م ـ تحول أحمد ياسين وأسرته ـ أمه وإخوته السبعة ـ مع الأغلبية الساحقة من سكان القرى الفلسطينية التي شهدت مجازر الصهاينة وترويع عصاباتهم ـ تحولوا إلى مشردين ولاجئين.. فالعصابات الصهيونية قد أقامت ـ يومئذ ـ ٣٤ مجزرة! وأزالت ٤٧٨ قرية فلسطينية من الوجود!.. بل وسعت ـ بالإعلام ـ إلى محوها من ذاكرة التاريخ!..

ولقد اضطر أحمد ياسين وأسرته إلى النزوح إلى غزة، حيث أقاموا لهم هناك «خصا» من القش فسكنوا فيه!.

● ولقد عاني الفتى أحمد ياسين ـ إلى جانب مرارة التشرد واللجوء ـ مرارة الفقر والحرمان ـ بعد اليسر والغنى ـ فكان يذهب إلى معسكرات الجيش المصرى، مع بعض أقرانه، لالتقاط فضلات طعام الجنود، والعودة بها إلى أهليهم ليعيشوا عليها!..

كما اضطر إلى ترك دراسته لمدة عام دراسي [١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ م] ليعمل في أحد مطاعم الفول بمدينة غزة، لقاء أجر زهيد يعول به أسرته!..

ثم تمكن من إكمال تعليمه في المرحلة الابتدائية سنة ١٩٥٢ م.

● وفى نفس العام ـ سنة ١٩٥٢ م ـ حدث له حادث كالزلزال، فبينما كان يمارس التمارين الرياضية ـ مع أقرانه ـ على شاطئ غزة أصيب بكسر فى فقرات العنق ـ وسنه يومئذ ستة عشر عاما ـ وبعد خمسة وأربعين يوما من وضع رقبته في «جبيرة الجبس»،

اتضح أنه قد أصيب بعاهة مزمنة، هى الشلل الذى سيلازمه بقية الحياة!.

لكنه - بالإرادة والصبر - حول نقطة الضعف هذه إلى نقطة انطلاق نحو القوة.. فواصل تعليمه الإعدادى، وأكمله سنة ١٩٥٥ م.. ثم انتقل إلى مدرسة فلسطين الثانوية.. وأنهى دراسته الثانوية سنة ١٩٥٨ م.

● وفى هذه المرحلة من حياته أخذ يواظب على الصلاة فى المساجد، وحضور دروس العلماء - وخاصة مسجد أبو خضرة، الذى كان يحاضر فيه العلماء الذين تربوا فى مدرسة الإخوان المسلمين، ومنهم الشيخ الأباصيرى.. والشيخ محمد الغزالى [١٣٣٥ - ١٤١٦هـ ١٩١٧ - ١٩٩٦ م].. وفى سنة ١٩٥٥ م انتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين، وأعطى البيعة، وأصبح عضوا عاملا - فى ظل المحنة التى كانت تتعرض لها بمصر وغزة، التى كانت تحت الإدارة المصرية -.. ولقد رأى فى الإخوان الجماعة «التى تدعو إلى فهم الإسلام فهما صحيحا، وإلى الشمول فى تطبيقه فى شتى مناحى الحياة»..

ولقد اعتقل - للمرة الأولى - فى الخمسينيات..

● وكان التعليم الجامعى - بالنسبة لأبناء غزة - يتم فى الجامعات المصرية.. ويحتاج إلى «مال» و«صحة»، ولم يكن لأحمد ياسين حظ منهما.. فقرر تثقيف نفسه بنفسه، وذلك بالقراءة الحرة، وخاصة لأمهات الكتب الإسلامية.

● وعندما احتلت الدولة الصهيونية قطاع غزة سنة ١٩٥٦ م - ضمن العدوان الثلاثي على مصر - كانت الفرصة الأولى للنشاط السياسي لأحمد ياسين . . فرغم ظروف الإعاقة الصحية ، شارك في المظاهرات المعادية لهذا الاحتلال - وكان طالبا في المدرسة الثانوية - وظهرت يومئذ قدراته الخطابية والتنظيمية المتميزة . . ونشط مع رفاقه ، في مقاومة مشروع الإشراف الدولي على قطاع غزة ، وفي المطالبة بعودة الإدارة المصرية للقطاع من جديد . .

● وبعد الحصول على الثانوية ، تقدم أحمد ياسين لشغل وظيفة مدرس ، ونجح في الاختبار بتفوق ، لكنهم كتبوا أمام اسمه كلمة «أعرج» وكاد أن يحرم من الوظيفة ، لولا أن المدير العام كان له ولد «أعرج» ، فاستفز من حرمان هذا المتقدم للوظيفة بسبب هذه العاهة ، فكتب - بالخط الأحمر - أمام اسمه الموافقة على تعيينه مدرسا للغة العربية والتربية الإسلامية ، بمدرسة «الرمال» الابتدائية وبموجبها أصبح له راتب ، قدره عشرة جنيهات مصرية ، يوفر لأسرته عيش الكفاف . .

● ولأن نجمه قد لمع بين شباب الدعوة الإسلامية في غزة ، فلقد تم اعتقاله إبان الحملة المصرية على جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٦٥ م - التي حوكم وأعدم فيها الشهيد سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦ هـ ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م] . وظل أحمد ياسين حبيس الزنزانة الانفرادية - بسجن غزة - قرابة الشهر . . ولم يمنع السلطات من ترحيله إلى السجن الحربي بمصر إلا «خشيتهم من أن يموت في الطريق» ! . .

ثم أفرج عنه لعدم كفاية أدلة الارتباط التنظيمي بجماعة الإخوان المسلمين..

لقد كان يعيش مأساة حرمان وطنه من الحرية.. وتعلم من محنة السجن معنى حرمان المواطن من نعمة الحرية.. فعبر عن هذا الدرس بقوله: «إن فترة الاعتقال قد عمقت في نفسي كراهية الظلم، وأكدت أن شرعية أي سلطة إنما تقوم على العدل، وإيمانها بحق الإنسان في الحياة بحرية».

ولقد أخذت عليه إدارة السجن - عند الإفراج عنه - بكفالة، تعهدا ألا يخطب في المسجد.. ولكنه فور دخوله إلى المسجد، يوم الجمعة، للصلاة تدافع الناس إليه، وحملوه ووضعوه على المنبر، وطلبوا منه أن يخطب خطبة الجمعة، فافتتحها بقول الله، سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج: ٣٨-٤١).

ولقد أبكى الناس بخطبته يومئذ، حتى هاجت مشاعرهم، فكادت تحدث ثورة، لولا أن قام هو بتهدئتهم!.. ويومئذ طلب مأمور

الإدارة القبض عليه ثانية، لكن تعلق الناس به والتفافهم حوله، جعل الجندى الذى طلب منه المأمور اعتقاله يرفض تنفيذ الأمر كى لا يتعرض لاحتقار الناس وشتائمهم"! . .

● وعندما اجتاحت الدولة الصهيونية قطاع غزة، واحتلته ـ ضمن عدوان سنة ١٩٦٧ م. أصبح جهاد الشيخ أحمد ياسين وإخوانه مباشرا ضد سلطات الاحتلال الصهيوني . . فمن على منبر المسجد العباسي ـ بغزة ـ كانت خطبه تلهب مشاعر الجماهير، وتوقظ عقولهم، وتملأ قلوبهم بقيم الرفض والغضب والمقاومة والاحتجاج . . ولأن المواجهة قد غدت مباشرة، فلقد سلك طريقه إلى الإعداد والتنظيم، فقاد عمليات جمع التبرعات لمعاونة أسر الشهداء والمعتقلين، وبدأ في إقامة «البنية التحتية» لمشروع الجهاد والفداء والاستشهاد، ليضمن الصمود والاستمرار لهذا الجهاد، ومن موقع الرئاسة "للمجمع الإسلامى" بغزة، أصبح الشيخ أحمد ياسين رأس هذا التوجه الجهادى على أرض فلسطين . .

● وفي سنة ١٩٦٨ م تولى الشيخ أحمد ياسين قيادة تنظيم الإخوان المسلمين في غزة . . فبدأت مرحلة جديدة في حياة الجماعة، بمد النشاط خارج قطاع غزة ـ استفادة من توحيد الإدارة في كل فلسطين، التي أصبحت جميعا محتلة ـ بل وامتداد التنظيم إلى التجمعات الفلسطينية التي تدرس أو تعيش في مصر . . وزرع التوجه الإسلامى المنظم بين العرب الذين يعيشون داخل الأرض المحتلة سنة ١٩٤٨ م ـ حتى لقد تحول الشيخ أحمد ياسين بعبد الله

لمردرويش من سكرتير للحزب الشيوعي في «كفر قاسم» إلى داعية من دعاة الحركة الإسلامية بين عرب الأرض المحتلة سنة ١٩٤٨م!.

● وفي أوائل السبعينيات ـ من القرن العشرين ـ أقالت سلطات الاحتلال الصهيوني ـ في قطاع غزة ـ الشيخ أحمد ياسين من وظيفة التدريس، بدعوى «عدم اللياقة الصحية».. فكانت هذه الإقالة خيرا وبركة على العمل الإسلامي، إذ منحت الشيخ تفرغا لهذا العمل منذ ذلك التاريخ.

● وفي سنة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٥م قام الشيخ أحمد ياسين برحلته الحجازية: فأدى فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، وزار المدينة المنورة، وقبر إمام المجاهدين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.. ثم عاد ليواصل جهاده على الأرض المقدسة، لتحرير القدس وفلسطين..

● وفي ١٥ ـ ٢ ـ ١٩٨٤م أمرت سلطات الاحتلال الصهيوني باعتقال الشيخ أحمد ياسين وعدد من إخوانه، لتوقف نشاطه ضد الاحتلال.. ووجهت إليه ـ يومئذ.. كمتهم أول ـ عدة تهم.. منها:

١ ـ العضوية في منظمة غير مشروعة تهدف إلى إبادة دولة إسرائيل وإقامة دولة إسلامية محلها، ذلك أنه قام بتأسيس حركة المجاهدين بمبادرة شخصية منه وبدعم من إخوانه الذين أصبحوا أعضاء في هذا التنظيم.

٢ ـ التحريض ضد قيام دولة إسرائيل، ذلك أن هذا التنظيم كان يهدف إلى إزالة دولة إسرائيل عن الوجود، وإقامة دولة إسلامية محلها.

٣ ـ حيازة السلاح، ذلك أنه ورفاقه حازوا عددا كبيرا من الأسلحة.

٤ ـ التآمر لارتكاب جريمة، ذلك أنه ورفاقه خططوا لاستعمال هذا السلاح ضد إسرائيل..».

وفي هذه المحاكمة، قال رئيس المحكمة العسكرية الصهيونية الضابط «زخريا كاسفي»: «إن المحكمة ترى في المتهم أحمد ياسين أنه خميني فلسطين، وقد ينجح في مأربه إن لم يتم التصدي له من خلال قوات الأمن ومن خلال قرار هذه المحكمة»!.

أما الشيخ أحمد ياسين، فلقد دافع ـ يومئذ ـ لا عن نفسه وإخوانه.. وإنما عن فلسطين، فقال: «أنتم تحاكمونني وإخواني وشعبي، ونحن الضحية لكم، بعد أن سلبتم أرضنا، وقتلتم رجالنا، وأقمتم كيانكم على أرض فلسطين بالقوة.

وربما تستغربون وتقولون: أين قوتكم، وأنتم الضعفاء؟!..فأقول لكم: إن كنا ضعفاء اليوم، فنحن أقوياء بإيماننا بالله عز وجل ولأننا أصحاب حق لا يتقادم مع مرور الزمان»!.

ولقد أصدرت المحكمة العسكرية الصهيونية ضد الشيخ أحمد ياسين حكما بالسجن ثلاثة عشر عاما.. فتنقل في سجون إسرائيلية عدة، منها سجون المجدل وغزة وبئر سبع وغيرها..

ولقد جاء فى حيثيات حكم هذه المحكمة : «إننا أمام مجموعة من الشبان الجاديين، ذوى الأساس المتين، ذوى ثقافة وتجربة حياتية، وقد وضعوا نصب أعينهم فرض سلطة الدين الإسلامى فى منطقتنا، وذلك بأمر زعيمهم - [أحمد ياسين] - من خلال إحراز أهداف سياسية ضمنها تصفية دولة إسرائيل بقوة السلاح وإقامة دولة إسلامية مكانها».

وهى حيثيات تشهد للإسلام، ولمعجزات الإسلام فى الجهاد والفداء والاستشهاد.. ولصنيع ثقافة الجهاد فى الإنسان..

• وخلال مراحل هذه المحاكمة، لم يكتف الصهاينة بالعاهات التى يعانى منها جسد الشيخ أحمد ياسين.. وإنما زادوا بالتعذيب. هذه العاهات سوءا.. فأصيبت عينه اليمنى بفقدان البصر - بسبب ضربة من جلادى المخابرات الصهيونية - ثم أصيبت عينه اليسرى بضعف فى الإبصار.. ثم توالت مشكلاته الصحية، فأصيب بالتهاب مزمن بالأذن.. وحساسية فى الرئتين.. وبأمراض والتهابات معوية.. ليجعل الله، سبحانه وتعالى، منه آية من آيات الجهاد الإسلامى، فمع أنه لا يملك من الطاقات الجسمانية إلا العقل اليقظ، واللسان المحرك للقلوب.. وقدرا من الأعصاب تجعل يده تمسك القلم بصعوبة.. إلا أن طاقاته الإيمانية قد غدت إعصارا يحرك الأمة، وينظم المجاهدين، ويقض مضاجع القوة الصهيونية العاتية ومن يظاهرونها من القوى العظمى التى تملك قوة فرعون ووفرة قارون!..

لقد أصبح ـ في ضعفه الجسماني ـ آية من آيات قوة الإسلام، ومعجزة من معجزات ثقافة الجهاد الإسلامي . .

● وبعد أقل من عامين، اضطرت سلطات الاحتلال الصهيوني إلى الإفراج عن الشيخ أحمد ياسين في سنة ١٩٨٥ م ـ ضمن صفقة لتبادل الأسرى والسجناء مع «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة» . . فعاد ثانية لقيادة العمل الجهادي على أرض فلسطين.

● وعقب الإفراج عنه، كون تنظيما جهاديا أمنيا ـ «منظمة الجهاد والدعوة» [مجد] لمحاربة عوامل الفساد والإفساد التي كانت تنشرها ـ عمدا ـ سلطات الاحتلال، لتدمير قدرات وطاقات شباب الشعب الفلسطيني . .

● وفي ٩ ـ ١٢ ـ ١٩٨٧ م اتفق الشيخ أحمد ياسين مع رفاقه على إقامة تنظيم جهادي، يضم المنتمين إلى جماعة الإخوان المسلمين في فلسطين، أطلقوا عليه اسم «حركة المقاومة الإسلامية» [حماس]، باعتباره «الذراع الضاربة لحركة الإخوان المسلمين في فلسطين المحتلة» . . وهو التنظيم الذي فجر وقاد ـ في ليلة إعلان تكوينه ـ «انتفاضة المساجد والحجارة» ـ التي استمرت حتى أجهضتها متاهات التسوية، التي انحرفت إليها منظمة التحرير الفلسطينية، والنظم والحكومات العربية ـ بعد مؤتمر مدريد سنة ١٩٩١ م . . وهي المتاهة التي تكرست في اتفاقية أوسلو» سنة ١٩٩٣م . .

● وإبان هذه الانتفاضة ـ انتفاضة المساجد والحجارة ـ قامت

سلطات الاحتلال الصهيوني - في أغسطس سنة ١٩٨٨ م - بمداهمة منزل الشيخ أحمد ياسين وتفتيشه .. وهددته - يومئذ - بالنفي - على مقعده المتحرك إلى جنوب لبنان .. ثم قامت - في ١٥ يوليو سنة ١٩٨٩ م باعتقاله مع المئات من أعضاء حركة حماس ، في محاولة لوقف المقاومة المسلحة للاحتلال الصهيوني وعملائه .. ووجهت إليه كمتهم أول - عشر تهم .. وفي ١٦ أكتوبر سنة ١٩٩١ م أصدرت إحدى المحاكم العسكرية الصهيونية حكما بسجن هذا الشيخ القعيد مدى الحياة .. مع إضافة الحكم بسجنه خمسة عشر عاما على حياته!!.

• وفي ١٣ ديسمبر سنة ١٩٩٢ م قامت مجموعة فدائية من كتائب الشهيد عز الدين القسام - الجناح العسكري لحماس - باختطاف جندي صهيوني ، وعرضت مبادلته بالإفراج عن الشيخ أحمد ياسين ومجموعة من المعتقلين الفلسطينيين المرضى والمسنين ، لكن سلطات الاحتلال رفضت العرض ، وأغارت على مكان احتجاز الجندي الصهيوني ، الأمر الذي انتهى بمقتله واستشهاد المجموعة الفدائية ، بمنزل في قرية "بيرنبالا" ، بالقرب من القدس ..

• وعندما فشلت محاولة الموساد الصهيوني في اغتيال الدكتور خالد مشعل - رئيس المكتب السياسي لحماس - بالعاصمة الأردنية عمان - وقبض على عناصر الموساد متلبسين بجريمتهم ، اضطرت الدولة الصهيونية إلى مبادلتهم بالإفراج عن الشيخ أحمد ياسين في

أول أكتوبر سنة ١٩٩٧ م . فعاد لقيادة المقاومة فى فلسطين من جديد . .

● وفي مايو سنة ١٩٩٨م قام الشيخ أحمد ياسين برحلة خارجية، زار خلالها عددا من البلاد العربية والإسلامية داعيا إلى نصرة الجهاد على أرض فلسطين، ودعمه ماديا ومعنويا، ولقد نجح - فى هذه الرحلة - فى أن يجمع نحوا من خمسين مليونا من الدولارات للمؤسسات الداعمة لصمود الشعب الفلسطينى . .

ولقد حاولت إسرائيل استخدام النفوذ الأمريكى فى منعه من العودة إلى غزة، ولكن ضغط الرأى العام الإسلامى والعالمى أجبرهم على السماح بعودته . .

● وعندما تفجرت انتفاضة الأقصى - فى ٢٨ سبتمبر سنة ٢٠٠٠م - فور الاستفزاز الصهيونى الذى تمثل فى اقتحام «شارون» - والجنود الصهاينة - للحرم القدسى الشريف، برزت حركة حماس، وذراعها العسكرى - كتائب الشهيد عز الدين القسام - فى المقاومة المسلحة للكيان الصهيونى . . وفى العمليات الاستشهادية - التى شاركت فيها النساء - الأمر الذى أفقد الصهاينة الأمان، فتزايدت الهجرة من الكيان الصهيونى، حتى فاقت الهجرة إليه، لأول مرة فى تاريخه . . بل وكادت أن تتوقف الهجرة إليه . . وتوقفت فيه السياحة . . واقترب النمو الاقتصادى فيه من الصفر . . وأصبح عالة على الدعم الامبريالى الخارجى . . وساءت سمعته فى الغرب لأول مرة فى تاريخه، حتى أن

استفتاء المفوضية الأوروبية سنة ٢٠٠٤ م، قد انتهى إلى أن اسرائيل هي الخطر الأول على السلام العالمي.. وتأتي بعدها في الترتيب أمريكا!.. ولاحت، لأول مرة في تاريخ هذا الكيان العنصري، مخايل نهايته المحتومة، والطريق المسدود الذي دخل فيه!..

كل ذلك، بفضل انتفاضة الأقصى، التي اتخذ قرارها الشيخ أحمد ياسين، وقادتها حماس والمنظمات الجهادية الأخرى - الإسلامية.. والوطنية - على أرض فلسطين..

وفي هذه الانتفاضة أعادت «حماس» اسم الشهيد عز الدين القسام، ليصبح صواريخ وقذائف وبطولات استشهادية، ضربت فيها النماذج الفلسطينية - رجالا ونساء - أمثلة لا نظير لها في تاريخ حركات التحرر الوطني.. فتجسدت على أرض فلسطين معجزات الإسلام والجهاد الإسلامي من جديد وبقيادة الشيخ القعيد أحمد ياسين.

ولقد كان الشيخ أحمد ياسين - لهذا الذي يمثله في المقاومة الفلسطينية - أبغض الناس عند الصهاينة المغتصبين لأرض فلسطين، حتى لقد أصبحت غزة - التي حولها إلى كتلة جهادية ونار محرقة للعدو الصهيوني - مكانا يتمنى الصهاينة غرقه في البحر، وزواله من الوجود.. كما يتمنون الخلاص من مستنقع احتلالهم له، لولا مخافة أن يشجع ذلك بقية أجزاء الأرض المحتلة على تصعيد وتيرة المقاومة، فيبدأ العد التنازلي للكيان الصهيوني، وتعود كل فلسطين

لأهلها ـ من البحر إلى النهر ـ كما يردد ـ بإصرار ـ الشيخ أحمد ياسين . .

ولأن هذا هو خطر الجهاد ـ الذي يمثله الشيخ أحمد ياسين ـ فلقد كان الرجل في مقدمة الرموز الجهادية التي تستهدفها اغتيالات الدولة الصهيونية . . وفي هذا الإطار تعرض للعديد من محاولات الاغتيال الفاشلة ، ومن أشهرها المحاولة التي حدثت في ٦ سبتمبر سنة ٢٠٠٣م عندما قصفت المروحيات الإسرائيلية شقة سكنية ـ في مدينة غزة ـ كان يجتمع فيها الشيخ مع بعض إخوانه من قادة حماس . . وأصيب يومها بجروح طفيفة في ذراعه اليمنى . .

● وكان الكثيرون ـ من أهله وأعوانه ـ ينصحونه بالمزيد من الحذر والاحتياط ـ أخذا بالأسباب . . ومع أنه لم يكن بالذي يهمل الأخذ بالأسباب ، إلا أن إيمانه بأن ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (الرعد : ٣٨) ـ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٤) ـ فالإيمان بالقضاء والقدر عقيدة من عقائد الإيمان الإسلامي . . وكما يقول الإمام علي بن أبي طالب [٢٣ ق هـ ـ ٤٠ هـ ٦٠٠ ـ ٦٦١ م] كرم الله وجهه : «نعم الجُنّة ـ [الوقاية والحماية] ـ الأجل»! . .

لأن الشيخ أحمد ياسين يؤمن بجميع ذلك . . وفوق هذا ، لأنه كان مشوقا إلى أن يلقى الله شهيدا ، ويردد كثيرا : «نحن طلاب شهادة» ، حتى لتقول ابنته «رحمة» : «كم تمنى الشهادة بقلب خالص ،

وبكاء في جوف الليل!.. وعندما كنا نطلب منه الاختفاء، حرصا على حياته، كان يرد علينا بقوله: «الرب واحد والعمر واحد»!..

لكل ذلك، لم يسمح الشيخ أحمد ياسين للمخاطر المحدقة بحياته - من الصهاينة الذين يقاتلونه من وراء جدر، ومن داخل المصفحات، ومن الطائرات التي لا يدركها بصره الكليل ولا أسلحته البسيطة.. لأنهم ﴿أحرص الناس على حياة﴾ (البقرة: ٩٦). أية حياة!.. لكل ذلك، لم يسمح الشيخ أحمد ياسين لهذه المخاطر المحدقة بحياته أن تؤثر على حريته في الحركة، ولا على برامجه ومسئولياته الجهادية..

● وفي ليلة الاثنين آخر المحرم سنة ١٤٢٥ هـ ٢٢ مارس سنة ٢٠٠٤م، قضى الشيخ أحمد ياسين ليله قائما بين يدي مولاه، وبعد أن تناول سحوره، ونوى الصيام لله، خرج - على كرسيه المتحرك - إلى مسجد «المجمع الإسلامي»، بالقرب من منزله - في غزة - فصلى الفجر، وخرج من المسجد، راجعا إلى منزله.. وفي هذه اللحظات، استخدمت آلة الحرب الصهيونية في رصده آلة حربية لم يسبق استخدامها - طائرة استطلاع، بدون طيار، لا تكاد ترى، لصغر حجمها - وقامت باغتياله بثلاثة صواريخ قذفتها الطائرات الصهيونية - المصنوعة في أمريكا - وتحت الإشراف المباشر لرئيس وزراء الكيان الصهيوني «آريل شارون» - فصعدت روح الشيخ الشهيد - شيخ شهداء فلسطين - إلى بارئها - صائمة ومتوضئة - لتلحق بروح عز الدين القسام [١٣٠٠ - ١٣٥٤ هـ ١٨٨٢ - ١٩٣٥م]

ومواكب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا .. عليه رحمة الله..

● وإذا كان الشيخ أحمد ياسين قد ترك من الذرية ثلاثة أبناء، وثماني بنات، وأربعين حفيدا وحفيدة - ٢٣ ذكرا و١٧ أنثى) - وهذا الإحصاء يعود إلى ما قبل خمسة عشر عاما من استشهاده - فلقد خلف - للأقصى والقدس وفلسطين وللأمة الإسلامية - نموذجا حيا للجهاد والفداء والاستشهاد، بكل ميادين الجهاد والفداء والاستشهاد - وخلف حركة إسلامية حولت الشعب الفلسطيني - برجاله ونسائه - إلى كتيبة باسلة من كتائب الجهاد .. كتيبة مرابطة على خير ثغور الإسلام .. مرابطة على رباط القدس الشريف والأرض المقدسة التى بارك الله فيها وحولها .. لقد حقق أحمد ياسين نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، التى قال فيها:

«لا تزال طائفة من أمتى على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، إلا ما أصابهم من لأواء - [شدة ومحنة] حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك».

فلما قال الصحابة: يارسول الله، وأين هم؟

قال، صلى الله عليه وسلم: «ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس» - رواه البخاري ومسلم - ..

تلك هى الكتيبة المجاهدة، التى رباها شيخ الشهداء أحمد ياسين .. رباها فى المسجد - الذى مثل فى صدر الإسلام مدرسة

النبوة، التي تخرج فيها الذين غيروا وجه الدنيا ومعنى الحضارة واتجاه التاريخ.. رباها أحمد ياسين على قيام الليل، الذي يجعل أهله [أشدُّ وطئًا وأقومُ قيلاً] لأن الله قد أراد لهم أن يحملوا ميراث النبوة الخاتمة والخالدة ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً (٥) إن ناشئة الليل هي أشدُّ وطئًا وأقومُ قيلاً﴾ (المزمل: ٥، ٦).

لقد عرفت نظم التجبر والطغيان من هم [أشدُّ وطئًا].. لكن كتائب الجهاد الإسلامي وحدها هي التي تجمع الحسنيين [أشدُّ وطئًا وأقومُ قيلاً].. ذلك أن العدل ـ الذي هو اسم من أسماء الله، سبحانه وتعالى.. وفريضة إلهية عامة ـ قد مثل الروح السارية في كل ميادين ومناحي الحضارة الإسلامية.. فنحن ـ حتى عندما نقاتل الظلمة والطغاة والمغتصبين لديار الإسلام والمعتدين على مقدساته، إنما ننشد العدل.. العدل الذي يعيد الحقوق لأصحابها الشرعيين.. والعدل الذي يضرب على يد الظالم فيرده عن الظلم الذي يجني به على نفسه، كما يجني به على المظلومين!..

❊ ❊ ❊

● لقد كان أحمد ياسين آية من آيات الله، التي يفجرها الإسلام، ليراها الناس في الأنفس والآفاق، وذلك ليزداد الذين آمنوا إيمانًا.. وليعلم الجبناء أن الفداء والبطولات ليست وقفًا على أصحاء الأجسام، وإنما هي وقف على أصحاء القلوب!..

وإذا كان الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك [١١٨ ـ ١٨١ هـ ٧٣٦ ـ

٧٩٧ م] الذي أبكى - بجهاده - الفضيل بن عياض [١٠٥ - ١٨٧هـ ٧٢٣ - ٨٠٣ م] - وهو شيخ الحرم المكي، ومن أكابر العباد الصلحاء - إذا كان عبد الله بن المبارك قد قدم وفضل المجاهدين في ميادين القتال والمرابطين على ثغور الإسلام على العاكفين في المحاريب، فقال:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا

لعلمت أنك بالعبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه

فنحورنا بدمائنا تتخضب

فإن أحمد ياسين كان «المجاهد» و«العابد».. كانت عبادته جهادا ومدرسة لتربية المجاهدين.. وكان جهاده عبادة، لأنه جهاد في سبيل تحرير الأقصى والقدس وفلسطين، التي تمثل آية من آيات الإسلام، ربط القرآن بينها وبين أول بيت عُبد الله فيه على ظهر هذا الكوكب الذي عليه نعيش..

وإذا كان جهاد أحمد ياسين قد فجر الطاقات الجهادية على أرض فلسطين.. فلقد فجر ملكات الشعر عند الكثيرين من تلاميذه وجنوده ومريديه.. ومنهم الأستاذ خالد أبو العمرين.. الذي قال - في ٢٤ - ٦ - ١٩٨٩ م.. إبان الانتفاضة الأولى -:

يا أحمد الياسين أنت إمامنا

ويشدنا إيمانك الجبار

يا أحمد الياسين قد علمتنا

أن السجون سياحة وفخار

علمتنا أن الرجال مواقف

وصلابة وتوثب وقرار

ناديت فاندفع الشباب كأنهم

من خيل «بدر» عزة ونضار

وأزحت عن وطني كآبة ظالم

فتكشفت للعالم الأسرار

بوركت يا رمز الجهاد وبوركت

أرض الرباط الشعب والأحجار

يا ميت الجسم الصغير أقمتنا

تُحيي هزال جسومنا الأحجار

سبحان ربي إن هذي آية

وبها يزول الخوف والأعذار

طأ فوق هام الكفر، فجّر ثورة

فالله يضرب، والسكوت العار

* * *

● أما آخر ما كتبه الشيخ الشهيد أحمد ياسين فرسالة بعث بها إلى الملوك والرؤساء العرب، وكان مقررا اجتماعهم في «مؤتمر القمة» بعد أيام من استشهاده.. ولقد جعل من هذه الرسالة «برنامجا» للأمة إزاء قضية الأقصى والقدس وفلسطين.. وفيها قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين.

أصحاب الجلالة والفخامة والسمو.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ما من شك أنه إذا عز العرب عز الإسلام، وإن دلت هذه المقولة على شيء، فإنما تدل على عظم الأمانة التي تحملون، وأنتم ـ وفقكم الله لخير الأمة ـ من استرعاه الله حاضر الأمة ومستقبلها، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول «إن الله سائل كل راع عما استرعى، حفظ أم ضيع» فالله الله في أمة الإسلام، وقد رماها أعداء الله عن قوس واحدة.

وإن أمامكم اليوم تحديات جساما، وشعوبكم تنتظر ما ستمخض عنه القمة من قرارات، وكلها أمل أن تكون قرارات القمة على مستوى ما نواجه من تحديات، ولا يخفى أن على رأس تلك التحديات قضية العرب والمسلمين المركزية، قضية فلسطين. وكلي أمل أن تنصر هذه القمة ما يشكل رافعة لشعب فلسطين، وقد أبوا إلا أن يواصلوا مسيرتهم الجهادية حتى يحقق الله النصر الذي نحب، والذي يرفع الله به شأن

أمتنا بإذنه تعالى. وإنى أناشدكم أن تأخذ القمة بعين الاعتبار القضايا التالية التى تخدم القضية الفلسطينية:

أولا: أرض فلسطين أرض عربية - إسلامية اغتصبت بقوة السلاح من قبل اليهود الصهاينة، ولن تعود إلا بقوة السلاح، وهى أرض وقف إسلامى لا يجوز التنازل عن شبر منها حتى إن كنا لا نملك الآن القوة اللازمة لتحريرها.

ثانيا: الجهاد فى فلسطين حق مشروع للشعب الفلسطينى، وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة وإن وصفه بالإرهاب من قبل أعداء الله لظلم عظيم يرفضه شعبنا فى فلسطين، وترفضه كذلك شعوبنا العربية والإسلامية، ونتمنى على القمة أن توضح موقفها بوضوح لا لبس فيه نصرة لشعبنا المجاهد.

ثالثا: إن شعبنا، وهو يخوض ببسالة معركة قد فرضت عليه، لهو جدير أن يلقى كل أشكال الدعم والتأييد من قادة الأمة، فهو بحاجة إلى الدعم الاقتصادى لتعزيز صموده، وقد دمر الصهاينة الأشرار كل أسباب الحياة والعيش الكريم لهذا الشعب المرابط ونهبوا خيراته، وهو بحاجة أيضا إلى الدعم العسكرى والأمنى والإعلامى والمعنوى والدبلوماسى، وغير ذلك من أشكال الدعم التى تعينه على مواصلة جهاده، وهو يتطلع أن تحقق له القمة كل ذلك بإذن الله تعالى.

رابعا: إننا نناشدكم أن توقفوا كل أشكال التطبيع مع هذا العدو، وأن تغلقوا سفاراته وقنصلياته ومكاتبه التجارية وأن تفعلوا المقاطعة العربية، وأن توقفوا الاتصال به والتعاون معه.

خامسا: إن الأمة تملك من الإمكانات والطاقات والقدرات ما يجعلها قادرة على نصرة قضاياها القومية ووضع حد لجرأة أعدائها عليها، وإني لأرى أنه قد آن لأمتنا أن تعمل بقول الله عز وجل ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ (آل عمران: ١٠٣). لتصبح قوة في زمن التكتلات ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ (الأنفال: ٧٣).

سادسا: إن المسجد الأقصى يناشدكم وقد أعد الصهاينة العدة لدك أركانه وهدم بنيانه، فمن له بعد الله إن لم تكونوا أنتم؟.

سابعا: إننا نناشدكم أن تقدموا كل أشكال الدعم للعراق الشقيق وشعبه حتى يتحرر من الاحتلال الأمريكي، لأن نصرة العراق وشعبه هي نصرة لقضية فلسطين والشعب الفلسطيني.

أصحاب الجلالة والفخامة والسمو:

هذا ما أردت أن أنصح به، وقد علمنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن الدين النصيحة، وأسأل الله أن يجمع كلمتكم لنصرة دينه، وأن يوحد صفكم على ما فيه خير الأمة ورفعتها.

أخوكم: أحمد ياسين

مؤسس حركة المقاومة حماس ـ غزة ـ فلسطين».

* * *

هذا هو آخر ما كتب شيخ الشهداء.. الشيخ أحمد ياسين.. وكأنما كان يكتب وصيته، التي هي وصية الأمة لكل أبنائها، الحكام منهم والمحكومين على حد سواء.. رحمه الله، وألحقنا به في النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا[1].

وهذه هي معالم فقه الصراع على القدس وفلسطين.. عبر التاريخ الطويل لهذا الصراع..

---

(1) انظر في سيرة وجهاد الشيخ أحمد ياسين:

- عاطف عدوان [الشيخ أحمد ياسين: حياته وجهاده] طبعة غزة سنة ١٩٩١م.
- صحيفة [الحياة] ـ لندن ـ في ٢٣ـ٣ـ٢٠٠٤م.
- صحيفة [الشرق الأوسط] ـ لندن ـ في ٢٥ـ٣ـ٢٠٠٤م. مقال للصحفي ناظم عويضه بعنوان «هكذا تعرفت على الشيخ ياسين».
- صحيفة [آفاق عربية] ـ القاهرة ـ في ٢٥ـ٣ـ٢٠٠٤م.
- موقع «إسلام أون لاين» على شبكة المعلومات الدولية «الانترنت»: «شيخ الشهداء بعيون أسرته» في ٢٥ـ٣ـ٢٠٠٤م.
- موقع «الجزيرة. نت» ـ على شبكة المعلومات الدولية ـ ٢٣ـ٩ـ٢٠٠٢م.
- موقع «إسلام أون لاين» مقال «الشيخ أحمد ياسين صاحب القلب الواسع» ٢٢ـ٣ـ٢٠٠٤م..

المصادر والمراجع

د. أسد رستم: [الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا] طبعة الجامعة الأمريكية ـ بيروت ـ بدون تاريخ.

جريس هالسل: [النبوءة والسياسة] ترجمة: محمد السماك ـ طبعة ليبيا سنة ١٩٨٩ م.

[يد الله] ترجمة: محمد السماك. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠ م.

سمير مرقس: [رسالة فى الأصولية البروتستانتية والسياسة الخارجية الأمريكية] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١ م.

[الحماية والعقاب: الغرب والمسألة الدينية فى الشرق الأوسط] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠ م.

سهام نصار: [اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية] طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م.

شبكة المعلومات العالمية الإنترنت: موقع: الإسلام أون لاين، والجزيرة نت.

عاطف عدوان: [الشيخ أحمد ياسين ـ حياته وجهاده] طبعة غزة سنة ١٩٩١ م.

د. عبد الوهاب الكيالي: محرر [موسوعة السياسة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م.

د. عبد الوهاب المسيرى: [موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩ م.

العهد القديم والعهد الجديد: طبعة دار الكتاب المقدس ـ القاهرة.

د. عواطف عبد الرحمن: [الصحافة الصهيونية فى مصر ١٨٩٧ ـ ١٩٥٤م ـ دراسة تحليلية] طبعة القاهرة ١٩٨٠م

غريغوريوس ـ الأنبا: [وثائق للتاريخ: الكنيسة وقضايا الوطن والدولة والشرق الأوسط] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥ م.

د. محمد حميد الله — محقق. [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

الحيدر أبادي

محمد رشيد رضا. الشيخ — مجلة [المنار].

محمد السماك — [الدين في القرار الأمريكي] طبعة بيروت سنة ٢٠٠٣م.

د. محمد عمارة — [إسرائيل.. هل هي سامية؟] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

المقريزي. — [كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك] تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م

مكسيموس مونروند — [تاريخ الحروب المقدسة في الشرق المدعوة حرب الصليب] ترجمة مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥م.

هيئة الاستعلامات المصرية — [ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية]. طبعة القاهرة بدون تاريخ.

د. يوسف الحسن — [البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي - الصهيوني] «دراسة في الحركة المسيحية الأصولية الأمريكية». طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.

دوريات

آفاق عربية ـ القاهرة .

الأهرام ـ القاهرة .

الحياة ـ لندن .

الشرق الأوسط ـ لندن .

الطليعة ـ القاهرة .

العربى ـ الكويت .

نيوزويك ـ أمريكا .

نيويورك تايمز ـ أمريكا .

الفهرس

رقم الإيداع ٢٠٢١٥ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 1161 - 5

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)

في فقه الصراع

على القدس وفلسطين

على مر تاريخ الصراع بين الغرب الاستعمارى وبين الشرق الإسلامى، كانت القدس رمز الصراع.. وبوابة الانتصار..

وفى كل مراحل هذا الصراع، تشابكت العلاقات بين «المصالح» وبين «العقائد.. والأيديولوجيات».

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل الرباط بين المسجد الأقصى والمسجد الحرام آية من آيات الله.. فكان تحرير القدس وفلسطين دينا وجهادا يحقق المصالح لكل أصحاب الديانات والمقدسات.. فلقد كانت أساطير الصليبية والصهيونية العقيدة القتالية للغزو.. ولإعادة اختطاف الشرق من التحرير الذى أنجزه الإسلام..

ولكشف جذور هذا الصراع.. وحتى لا نفرّط فى سلاح الجهاد وطاقاته. بينما يتسلح الأعداء حتى بالأساطير. يصدر هذا الكتاب، الذى يقدم الفقه والوعى بأبعاد هذا الصراع.



دار الشروق
www.shorouk.com